الجزء الثاني

زيف الحداثة

• المادية العلمية

■ المصادر العامة

من المثير للاستغراب، أن كلًّا من مشروع الشيوعية وما يسمى مشروع الحداثة يعانى من العرض نفسه: المادية ـ الإلحاد. وفى الحقيقة، يعد كلٌّ من الفيلسوف الإغريقى ديموقريطس وفيلسوف القرن التاسع عشر الألمانى لودفيج فيورباخ أبًا لأحد المعسكرين.

فى عام ١٨٠٥، قال الفيلسوف الفرنسى لابلاس (مات ١٨٢٧) لناپوليون: أصبح الله افتراضًا سطحيًّا خرافيًّا من وجهة نظر العلم؛ حيث يمكن تفسير الكون بدون الحاجة إليه.

لم ينشأ الإلحاد، والنظرة المادية للعالم المرتبطة به من فراغ، بل كان ذلك إحدى النتائج الجانبية للفوران الفكرى فى القرن الثامن عشر.

ولقد كان الإيمان بمذهب الربوبية(*) الخطوة التى جاءت بالإلحاد، واعتنق مذهب الربوبية الملك البروسى فردريك الثانى، والأديب جوتهولد ليسنج (مات ١٧٨١)، والشاعر الكبير جوته (مات ١٨٣٢). كانت تلك العقول العظيمة واعية بعيوب الكنيسة وعقيدتها، ولكنها كانت مؤمنة بوجود سبب أول لكل ما فى الوجود. وعند بعض الربوبيين، السبب الأول مثل صانع الساعة، الذى أنهى عمله بأن صنعها وملأها وتركها تدور.

لم يلعب أحد دورًا فى القرن الثامن عشر مثل الفيلسوف الألمانى إيمانويل كانت (مات ١٨٠٤)، وربما كان أهم فيلسوف منذ أرسطو. أثبت كانت فى كتابه «نقد العقل الخالص» (١٧٨١) مرة وللأبد أن قدرات الإنسان الحسية محدودة، فلا يمكن لمجهوداتنا الحسية أن تزودنا بمعرفة يمكن الوثوق بها لحقيقة غير حسية، مثل معرفة الله، ولا حتى الإحاطة بالحقيقة الموضوعية للزمان والمكان.

(*) فكرة انتشرت فى أوروپا ومن بعدها الولايات المتحدة، جوهرها الإيمان برب للكون دون الإيمان بالكتب المنزلة.

لم يزعم كانت أنه أثبت عدم وجود الإله، ولا أنه حتى يعتقد بإمكان إثبات ذلك. بل بالعكس، ففى كتابه «نقد العقل العملى» (١٧٨٨) أشار إلى أن البشر وهبوا طبيعة تجعلهم لا يستقيمون (أخلاقيًا) إلا بافتراض وجود إله، بكلمات أخرى، افترض كانت مفهوم الإله الذى لا يمكن الاستغناء عنه، حتى يمكنه بناء نظام أخلاقى.

طبقًا لكانت لا يمكن للإنسان أن يتوصل لمعرفة الحقيقة كما هى، ولكنه (جُبل)(*) ليفكر من خلال صور الحساسية (أى صورتى المكان والزمان) والمقولات.

واستطاع كانت بذلك ـ فقط ـ الزعم بأنه يمكننا التصرف بشكل معيارى.

بهذا، إذا كان منهج ومنطق كانت «لا أدريًا»، فهو قد انحاز ـ ولو عاطفيًا ـ لوجود إله، واعتبر ذلك افتراضًا ضروريًا لحياة الإنسان.

بكل تأكيد، لم يمهد كانت، ولم يرد أن يمهد الطريق للإلحاد.. ولكن للأسف استنتج بعض الناس من فلسفته أنه «ربما لا يكون هناك إله»!.

ربما يكون أستاذ الطب الفرنسى فى «أكاديمية العلوم البروسية ـ برلين» جوليان أو فروى دى لاميترى (مات ١٧٥١) أول ملحد معاصر ينفى حتى وجود روح فى الإنسان، ويعتبر «الإنسان ماكينة» يمكن تفسيرها بشكل آلى. ومن الملحدين البارزين فى ذلك العصر، لودڤيج ڤيورباخ، الذى رفض تمامًا الدين، وتشارلز داروين (مات ١٨٨٢) صاحب نظرية النشوء والارتقاء، كارل ماركس (مات ١٨٨٣)، وفردريك إنجلز (مات ١٨٩٥)، وعالم الحيوان الألمانى إرنست هيكل (مات ١٩١٩)، سيجموند فرويد (مات ١٩٣٩) مؤسس التحليل النفسى، وهو فرع إلحادى من علم النفس. هؤلاء هم قادة الفكر المادى.

اتخذ الإلحاد مستوى جديدًا مع فردريك نيتشه (مات ١٩٠٠) عندما أعلن «وفاة الإله»، وسواء اعتقد بثنائية المادة ـ الروح أو لم يعتقد، فقد أدى زعمه بأن «الإله قد مات» إلى نظرية جديدة فى اللاهوت المسيحى تبناها بعض الفلاسفة وعلماء اللاهوت، ومنهم مارتن هيدجر، مفادها أن الإله قد أُخرج من التاريخ، ولم يعد له تأثير على العالم، وتتحدث تلك النظرية عن الإنسان أكثر مما تتحدث عن الإله.

(*) اقرأ فى سورة الأعراف الآية ١٧٢.

■ عواقب مختلفة

إذا كنا قد رأينا العواقب المدمرة للإلحاد المادى فى العالم الشيوعى/ الاشتراكى، فالسؤال هنا: لماذا لم يعانِ الغرب من العواقب نفسها؟

الإجابة بسيطة: اختلف الإلحاد فى الشرق عن الإلحاد فى الغرب، لا يعنى هذا أن المادية فى الغرب ليست لها عواقب مدمرة، بل هى فقط ذات طبيعة مختلفة.

أمسك زمام الإلحاد فى الغرب تقليد ليبرالى ـ ديمقراطى إنسانى، يتمركز حول فكرة الإنسان الحر المسئول. غذى ذلك التقليد ثقافة «حكم القانون» والتى ساعدت ـ بقدر عظيم ـ على حماية المواطنين من تسلط الأنظمة الإلحادية.

أما عاقبة المادية عند الغرب، فهى الوقوع فى مذهب الهدونية «عبادة اللذة».

كذلك فى الغرب، ما زال الكثيرون يخجلون من أن يعترفوا بأنهم ملحدون، وما زال الدين يلعب دورًا مؤثرًا فى الحياة الأخلاقية والسياسية فى أوروبا، وخاصة فى الولايات المتحدة. وعلى الأقل، فالإلحاد لا يُدفع دفعًا فى العقول، كما حدث فى الاتحاد السوفييتى.

وليس الإلحاد تيارًا رئيسيًّا داخل المؤسسة العلمية فى الغرب، وفى الواقع فإن العلم فى الغرب يجعل الناس يتذبذبون بين الإلحاد واللاأدرية والإيمان بدين ما.

وختامًا، فإنه ليس من المبالغ فيه أن نقول:

تخسر المادية الآن أرضًا لصالح الدين.

■ العلوم الاجتماعية

نلقى نظرة خاطفة على بعض الكتب التى خلقت الاتجاهات السائدة فى القرن العشرين:

١ ـ بعض هذه الكتب ذات منهج إلحادى بكل تأكيد، وأمثلة ذلك مؤلفات سيجموند فرويد، وأوزوالد شپنجلر، وماكس ڤيبر، وكارل شميدت، وأرنولد جيهلان، وچان پول سارتر، وكلود ليڤى شتراوس. وقد مثّل كتاب «تفسير الأحلام» لفرويد المنشور فى ١٩٠٠، علامة فى الطريق لتطوير علم نفسى تحليلى إلحادى، ينكر وجود الروح.

عندما نشر أوزوالد شپنجلر (مات ١٩٣٦) عمله «انحطاط الغرب»، فقد جذب القرّاء فى

الفترة بين الحربين العالميتين، وكانت رسالته مادية تاريخية ذات صبغة تشاؤمية قطعية مفادها أنه: ليس للإنسان هدف أو رسالة، فما هو إلا صنف من الحيوان (ليس من نافلة القول أن أوزوالد بمفهومه عن علم الإنسان الثقافي أيضًا، أصبح الأب لنسبية ما بعد الحداثة).

وقد وضع ماكس ڤيبر (مات ١٩٢٠) الأساس النظرى لعلم اجتماع لا يرى حاجة لإله فى كتابيه «الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية» (١٩٠٤ ـ ١٩٠٥)، و«الاقتصاد والمجتمع» (١٩٢١ ـ ١٩٢٢).

أكد كارل شميدت (مات ١٩٨٥) الفكر المعادى للديمقراطية وللأخلاق، والذى اعتبر الحرب الأب الشرعى لكل شىء. وأصبح بكتابه «مفهوم السياسة» (عام ١٩٢٧)، الأب الروحى فى تقرير شرعية النازية. بدون التقيد حتى بسلطة «القانون الطبيعى»، أصبحت سيادة الدولة وكذلك الحاكم مرعبة بالفعل.

وعلق أرنولد جيهلان (مات ١٩٧٦) كل التساؤلات عن إمكانية ثنائية الجسد/ الروح.

ويصف جان پول سارتر (مات ١٩٨٠)، وأهم أعماله «الوجود والعدم»، الإنسان بأنه كائن مستقل ممزق بين حرية عديمة الجدوى، وجبرية مرعبة، واحتفاءً بسخافة الحالة الإنسانية، زعم سارتر بأن ليس للإنسان حياة داخلية، فقط ردود فعل للتحديات الخارجية (كل شىء من الخارج). سارتر فى جملة واحدة، أراد أن يحول الإلحاد إلى شكل فنى.

وأسس كلود ليڤى شتراوس «البنيوية الثقافية»، واعتقد فى «اللاوعى البنائى» الذى يحدد التصرفات الاجتماعية، وبيَّن ذلك فى كتابه «البنية الأساسية للعلاقات العائلية» (١٩١٩)، ولكن فى بحثه عن «المعايير الاجتماعية الأولية» رفض أن يرى فى الإنسان أى أثر للمقدس (الإله).

٢ ـ ومع هذا، كانت هناك «معالم على الطريق» فى القرن العشرين لأعمال فلسفة لا أدرية، اعترفت باحتمال وجود إله، أو حتى قامت بمحاولات صوفية غامضة سعيًا وراء الحقيقة الكاملة.

وقد أقلق لودڤيج ڤيتجنشتين (مات ١٩٥١) العالم الفلسفى ببحثه «رسالة فلسفة منطقية» الذى كتبه بالألمانية، حيث عرَّف فيها حدود الإدراك الإنسانى بحدود اللغة، وقال إنه لا يمكننا أن نفكر فيما لا يمكننا صياغته بشكل صحيح. ولكنه لم ينكر أن الحقيقة التى لا يمكن التعبير عنها (وبالتالى فلا يمكننا التفكير فيها) لها وجود فعلى، وسماه «الغموض» الظاهر، وطبقًا لأفكاره، فإن كيفية عمل العالم ليست غامضة، ولكن الغموض الحقيقى يكمن فى أنه موجود.

ذلك بالقطع ليس موقفًا لشخص ملحد، لكنه موقف لاأدرى متفائل.

يمكن أن نقول الجملة السابقة نفسها على مارتن هيدجر (مات ١٩٧٦) الذى نجد هاجسه عن «لغز الوجود» فى عمله الرئيسى (الوجود والزمان، ١٩٢٧) ونصيحتى لمن ليس ألمانيًّا ألا يقرأ هيدجر بالألمانية، فأسلوبه الذاتى الرفيع، كثيرًا ما يُحيِّر، فالترجمة الإنجليزية أو الفرنسية أسهل فى الفهم.

رأى هيدجر أن «الوجود» يتشكل «فى» وليس «بواسطة» الإنسان. وبرغم أن تفكيره كان بصفة رئيسية يتمحور حول الوجود، فإنه لم يصل قط لصيغة عن هدف أو معنى الوجود.

وعندما بلغ هيدجر خمسين عامًا، التفت نحو الأسطورة عبر لغة مغرقة فى الشعرية والرومانسية. وفى الحقيقة، ففى الوقت الذى أصبح فيه عدوًّا للميتافيزيقية التحليلية، أصبح هو نفسه منفتحًا على التسامى للمقدس.

وقد تحول كلٌّ من ماكس هوركايمر (مات ١٩٧٣)، ثيودور دبليو أدورنو (مات ١٩٦٩) من الماركسية إلى النقد المرير للحداثة، فى عملهما المشترك العالى المستوى «جدلية التنوير» (١٩٤٧) وكشفا عن الدور المستمر لـ «العناصر الأسطورية» المهجورة، وكيف انجدل ـ بإحكام ـ العقلى والأسطورى.

لقد تبيَّنا أنه إذا مات الإله، انهزمت العقلانية، وأن المنطق التسلطى الاضطهادى فى شكل أيديولوجية قد حل محل الدين. وقد فسر ذلك لهما كيف أصبحت النازية والستالينية معًا النقيضين الصارمين للعقلانية وجميع نتائجها.

يسهل أن نرى هوركايمر وأدورنو يساعدان على التبشير بما بعد الحداثة، وتسامحها مع ما هو تقليدى، وقد لا يبدو عقلانيًّا، بما فى ذلك الدين.

ربما يكون اللغوى الروسى الرائد ميخائيل باختين أحسن من لخص المرحلة الانتقالية من الحداثة لما بعد الحداثة عندما كتب «معضلات شعريات ديستوفسكى» (١٩٢٩): «لم يحدث شىء بشكل نهائى فى العالم. حتى الآن لم تنطق كلمة العالم الأخيرة، ولا الكلمة الأخيرة عن العالم. العالم حر ومفتوح. كل شىء ما يزال فى المستقبل، وسيظل دائمًا فى المستقبل».

■ العلوم الطبيعية

فى مجال العلوم الطبيعية، وجدنا فى القرن العشرين نفس الخليط من اللاأدرية والإلحاد،

والتذبذب بينهما، كما وجدنا ذلك بين علماء الاجتماع، ولكن وجدنا أيضًا اتجاهًا مذهلًا نحو الدين، كما ظهر بين العمالقة من علماء الفيزياء الحديثة مثل:

دافيد بوم، ونيلزبوهر (ماتا فى ١٩٦٢)، ماكس بورن (مات ١٩٧٠)، سير آرثر إدنجتون (مات ١٩٤١)، ألبرت أينشتاين (مات ١٩٥٥)، فيرنر هايزنبرج (مات ١٩٧٦)، أرنست پى چوردان (مات ١٩٨٠)، ڤولفجانج پاولى (مات ١٩٥٨)، ماكس پلانك (مات ١٩٤٧)، إيروين شرودينجر (مات ١٩٦١) كارل ف. ڤون ڤايتسكر [ترتيبهم أبجدى بالإنجليزية].

يمكن فهم الأوضاع فى القرن العشرين بفهم أوضاع القرن السابق عليه، عندما توقع العلماء أن تجيب العلوم الطبيعية عن كل الأسئلة الكبرى عن العالم واستمراره، وكيف يعمل، الحياة، الوعى الإنسانى، الجاذبية، مكونات الذرة، بداية العالم ومستقبله.

عندما لم يحدث أىٌّ من ذلك، بدأت الشكوك والتساؤلات عن الحداثة نفسها.

١ ـ الفيزياء الحديثة

أ ـ العالم فى وصفة؟

اعترت العالم خيبة أمل فى مجال من أنجح مجالات العلم الحديث: الفيزياء الحديثة.

جاءت ثورة الفيزياء الحديثة على يد ماكس پلانك وألبرت أينشتاين وغيرهما لتحل الفيزياء الكمية محل فيزياء نيوتن التقليدية فى مطلع القرن العشرين، وبرق أمل تلخيص الحقيقة الكلية فى معادلة رياضية واحدة. كانت تلك فكرة طموحة، مهدت لها معادلة أينشتاين:

$E = m\,c^2$، أو الطاقة E = الكتلة m × مربع السرعة c^2

لم تستبعد تلك الفكرة بالضرورة تفسيرًا دينيًّا للحقيقة، ولكنها بكل تأكيد لم تشجعه أيضًا.

ب ـ أسئلة أخرى مفتوحة

بعد قرن ازدهرت فيه العلوم الطبيعية، ما زلنا فى انتظار حل كل الألغاز العلمية الجوهرية، سواء كان ذلك فى الفيزياء الجزيئية، علم الكون، الكيمياء الحيوية، النانو(*) تكنولوچى، نظرية

(*) النانو تكنولوچى تتعامل مع المادة فى صورة تجمعات ذرية لها أبعاد فى حدود عدة نانومترات، حيث النانومتر هو جزء من بليون (ألف مليون) من المتر. وبسبب هذه الأبعاد المتناهية الصغر، تتغير خواص المادة تغيرًا كاملًا، وتنشأ ظواهر غير معتادة للإلكترونات، يمكن الاستفادة منها فى التطبيقات الإلكترونية وفى الحاسبات المستقبلية، والطب، وعلم المواد، والطاقة النظيفة، ومكافحة التلوث.

الشواش (الفوضى) أبحاث المخ والأعصاب و... وفى الواقع، أصبح العلماء على وعى أكثر بالمحدودية الكامنة فى طبيعة الأبحاث العلمية.

٢ ـ الرياضة والنظرية العلمية

أ ـ حدود التفاضل والتكامل

لفت عالم المنطق النمساوى كورت جوديل الأنظار فيما يخص ما وراء الرياضيات إلى الحقيقة المثيرة للإحباط المتعلقة بقانون «النقصان» (عام ١٩٣١)، ومفاده: أن أى وصف رياضى للعالم سوف يظل دائمًا «ناقصًا»؛ لأنه سوف ينطلق ـ بالضرورة من افتراض بديهى واحد على الأقل.

ب ـ حدود التحقق

تزايد التشاؤم من إمكانية التحويل الموثوق به «للحقيقة الكاملة» إلى معادلات رياضية، عندما وصلت فيزياء الجسيمات إلى أبعاد متناهية فى الصغر لا يمكن التحقق من حقائقها أو إثبات زيفها تجريبيًّا. ولم تعد لفيزياء الجسيمات المتناهية الصغر وسيلة علمية يمكن بها استبعاد أن لله يدًا فى الأمر، وبذلك أصبحت فيزياء الجسيمات المتناهية الصغر علمًا تخمينيًّا أكثر منه تجريبيًّا.

جـ ـ افتراضات بدون دليل

تزايدت الشكوك طبقًا لنظرية العلم التى طوَّرها عام ١٩٣٥ الفيلسوف النمساوى كارل بوپر مثلما فعل دافيد هيوم فى القرن الثامن عشر بخصوص السببية، قال بوپر: لا يمكن لأحد التأكد من صحة نظرية لمجرد أنها تبدو أنها تعمل، يمكننا فقط التأكد من أن هناك نظرية خاطئة، عندما نستطيع إثبات زيفها. ولذلك فما هى إلا خرافة علمية أن نعتقد إمكان تأمين معرفة «أكيدة» عن طريق معلومات نحصل عليها بالحواس.

«الاحتمالية» هى أعلى درجات «اليقين» التى يمكن الحصول عليها.

وعلى ذلك، طالما لا يجيب العلم عن الأسئلة «الكبرى» بخصوص أصل الكون والهدف منه، يظل الدين بمنأى عن إمكانية الاستغناء عنه.

د ـ النسبية المطلقة؟

زاد المفكر النمساوى پول فايرباند (مات ١٩٩٤) ـ صاحب الشعار ما بعد الحداثى «أى

شيء يجوز» ـ من الاتجاه نحو النسبية المطلقة فى كتب مثل «ضد قيود المنهجية» (١٩٧٥)، «المنطق يضل» (١٩٨٧). وطبقًا لأقواله: العلم أحد الطرق للاقتراب من الحقيقة، بجانب ـ وليس مهيمنًا على ـ الدين، الفلسفة، الفن.

وعلى ذلك، لم يخجل فايرباند من الكلام عن الله، ولم لا؟ أليس أى شيء يجوز؟

كان لتوماس كون من «MIT» فى بوسطن التأثير نفسه بمفهومه الشائع عن «النماذج الثقافية». وأصبح كتابه «هيكل الثورات العلمية»، الذى نُشر فى أوائل السبعينيات، كعبة فكرية.

النموذج الثقافى هو افتراضات أولية فى مفاهيم ثقافة ما، تحكم كل أنشطة المجتمع، حتى العلمية منها. لذلك، فإن ما يعتبر صحيحًا فى نموذج ما، قد لا يعنى شيئًا داخل نموذج آخر. النماذج الثقافية مثل اللغات المختلفة، غير قابلة للقياس، ومتعددة، لكنها نماذج متنوعة من الحقيقة متساوية الصحة.

بكلمات أخرى، لم يمكن معرفة الحقيقة المطلقة عند جوديل، پوپر، فايرباند، كون، مما شجَّع على ما يمكن تسميته «أسطورية النسبية»، وبعيدًا عن الاعتقاد اليقينى الذى ساد فى القرن التاسع عشر بأن كل شيء ستتم معرفة حقيقته، شك هؤلاء المفكرون فى أنه يمكن معرفة حقيقة أى شيء إلى درجة كافية من اليقين.

٣ ـ فيزياء الجسيمات متناهية الصغر

أ ـ الحقيقة تحت الذرية

ـ زيارة ثانية

من قديم الأزل، توصل مفكرون مثل ديموقريطس إلى أن المادة يمكن تفتيتها إلى حدود دنيا ليس بعدها تقسيم أو تفتيت، وأطلق على أصغر مكوناتها الذرة. شكَّلت الذرة مفهومًا تجريديًّا للحقيقة الأساسية عند المفكرين، ابتداءً بأرسطو، ومرورًا بابن رشد إلى نيوتن. وفى القرن التاسع عشر، اعتبرت الذرة ما لا يمكن الحصول على أصغر منه فى العناصر الكيميائية.

ـ النظرية الكمية

جاء أربعة علماء عباقرة ـ ألمان ونمساويون ـ من الحاصلين على جائزة نوبل:

ماكس بلانك (مات ١٩٤٧)، ألبرت أينشتاين (مات ١٩٥٥)، إيروين شرودينجر (مات ١٩٦١)، فيرنر هايزنبرج (مات ١٩٦٧) بنظام جديد للفيزياء الكمية، مبنى على مفهوم جديد للطاقة، ولحقيقة الذرة، ولطبيعة الزمن والفراغ. أصبحنا نعلم أن فيزياء نيوتن تسرى فقط على الأجسام الكبيرة التى تحتوى على عدد هائل من الذرات، وفى غير ذلك تصبح نظرية الكم هى الصالحة للتطبيق. كما تسرى فيزياء نيوتن على السرعات الأقل بكثير من سرعة الضوء (وبغير ذلك يصبح القانون الثانى للنسبية هو الصالح للتطبيق). أصبحت هذه القصة معروفة إلى حد كبير. كان بلانك هو أول من اكتشف أن الضوء والمادة يمكنهما أن يتبادلا الطاقة بمقادير ثابتة متقطعة (تسمى الكم أو «كوانتم»).

ـ نسبية الزمان والمكان

قاد ذلك أينشتاين ليصف الضوء والإشعاع كظاهرة كمية تسرى بسرعة لا يمكن تجاوزها وتسمى سرعة الضوء، وهى أفضل «ثابت» معروف فى الطبيعة. غيَّر أينشتاين مفهوم الزمان والمكان بنظرية النسبية (١٩٠٥، ١٩١٤، ١٩١٦)، وكان العالم كانت قد أنكر من قبل هذه المفاهيم؛ حيث اعتبر الزمان والمكان من وسائل الفطرة الإنسانية فى الإدراك الحسى. والآن أثبت أينشتاين أن الجغرافيا هى شىء أنشأه التركيب العقلى الإنسانى، وأن الزمان بُعد رابع.

ـ الجسيمات تحت الذرية

سرعان ما اكتشف إرنست رثرفورد (مات ١٩٣٧)، ونايلز بوهر (مات ١٩٦٢) أن كل ذرة عبارة عن نظام متعادل كهربيًّا وقائم بذاته، مما يعنى ضمنًا أن العالم ما هو إلا ذرات غير مرئية يتخللها فراغ.

هايزنبرج وبول ديراك اللذان اكتشفا فى عام ١٩٢٨ وجود ضديد الجسيم (البوزيترون مثلًا هو ضديد الإلكترون)، وبالتالى اكتشفا المادة المضادة، مما قاد إلى تصور الذرة على أنها جسيمات (أصغر) وهى بروتونات ونيوترونات محاطة بإلكترونات.

ـ عدم اليقين (اللاحتمية)

تحقق أيضًا إمكانية تحويل المادة إلى طاقة، والطاقة إلى مادة، بل وإنه على المستوى تحت الذرى لا يمكن التمييز بين حالتى المادة والطاقة: حيث يمكن أن تظهر الظاهرة كجسيمات أو كموجات طاقة (مبدأ عدم اليقين، ١٩٢٧) اعتمادًا على فنية الملاحظة. هذا المبدأ وصفه ريتشارد بى فينمان كالتالى:

«إذا قلت إن الإلكترونات والبروتونات تتصرف مثل الجسيمات، لهيأت انطباعًا خاطئًا، كذلك لو قلت إنها تتصرف كموجات. إنها تتصرف بطريقتها غير القابلة للتقليد، والتى تسمى الميكانيكا الكمية.

خلاصة كلامه، أن لغة الإنسان غير ملائمة لوصف الظواهر التى تتخطى خبرات الحياة اليومية.

ـ حديقة حيوانات الجسيمات

استطاع علماء الجسيمات التجريب مع الذرات المفردة، بفضل «المذبذب الضوئى ـ Light Resonator»، واكتشفوا حديقة حيوانات كاملة من الجسيمات تحت الذرية.

يُعتقدُ الآن أن للبروتونات والنيوترونات مكونات بناء، تأتى دائمًا فى مجموعات ثلاثية، سماها موراى جيلمان بسخرية كافية «كوارك ـ Quark». ومنذ ذلك الوقت، بدا أن المادة يمكن تفكيكها إلى ستة كواركات، وستة ليبتونز أصغر من قدرتنا على التخيل.

أما جسيمات النيوترينو التى توقع وجودها ڤولفجانج پاولى عام ١٩٣٠، فقد تم اكتشافها أول مرة عام ١٩٩٩ فى مينز (ألمانيا)، وفى تروتسك (روسيا)، وهى جسيمات متعادلة لها كتلة قليلة (أو بلا كتلة تقريبًا).

كذلك، أمكن فى كلٍّ من روما وبكين عام ٢٠٠٠ تأكيد وجود «المادة السوداء ـ Black Matter» التى تشكل معظم كتلة الكون، على شكل «ويمپات ـ Wimps» (الجسيمات الثقيلة ذات التفاعل الضعيف ـ Weakly interactive massive particles)، تزيد كتلتها على كتلة البروتون خمسين ضعفًا. وقد أمكن رؤيتها بطريقة غير مباشرة عند تصادم المادة السوداء، مما يبعث برقًا ضعيفًا. كما يمكن للمرء الآن أن يأمل فى إمكان وجود موجات للجاذبية، يظن أن طولها الموجى ١٠٠كم.

ـ التداخل بالملاحظة

يتعجب المرء الآن، إلى أى مدى سيصل التقدم فى هذا المجال؟

مع الأخذ فى الاعتبار أن كل الملاحظات فى فيزياء الجسيمات متناهية الصغر تعتمد على طريقة الملاحظة المستخدمة، أى أن كل المعلومات الملاحظة، تأثرت بشكل لا يمكن تجنبه بتفاعل الجسيم الملاحظ مع الشخص القائم بالملاحظة.

كم كان باعثًا على إحباط العلماء أن يدركوا أن كل ما أرادوا ـ بكل أمانة ـ أن يلاحظوه بموضوعية، انطبعت عليه ذاتيتهم، وخلفيتهم الثقافية. يبدو أن العالم الموضوعى ـ حقًّا ـ هو أمر بعيد عن المنال، فما نستقبله هو ـ حتمًا ـ مشوب بذاتنا (هانز پيتر دور).

ـ السببية أم تأثيرية؟

بناء على ما سبق، ماذا بوسع المرء أن يفهم عن حقيقة ما تحت الذرة، التى لا تبدو أنها تتكون من شىء محدد بقدر ما هى تدفق ظواهر كونية، ليست بمادة وليست بـ: لا مادة؟ ماذا يفهم عن عالم ما تحت الذرة، الذى ليس فقط أصغر من الذرة، ولكن ذا تركيب مختلف، ليس محددًا ميكانيكيًّا ولكن محددًا كميًّا؟

أشير هنا إلى الاكتشاف المحبط لظاهرة الشواش (الفوضى)، والتى هى ـ رغم تحررها من السببية، وكونها خارج نطاق التنبؤ ـ محددة إلى حد ما.

حركة كل عنصر خارجة عن التنبؤ، ومع ذلك فإن سلوك عدد كبير من تلك العناصر ـ أى السلوك الجماعى لها ـ يمكن التنبؤ به.

هنا تحل ظاهرة التأثيرية محل فكرة السببية. هكذا بلا مواربة!. بمعنى، أننا جميعًا منذ الطفولة، قد تربينا على الأوهام ذات الجذور القوية على السببية، وعلى اليقين «بالأشياء»، وهى الأيديولوچية التى سماها باشيلارد «الشيئية» نسبة إلى «الشىء».

ـ نظرية الأوتار الفائقة

ربما كان لإدوارد ويتن ـ جامعة پرنستون ـ الفضل فى إحراز أكبر تقدم معاصر فى طريق معادلة واحدة للكون، باكتشافه أو باختراعه «نظرية الأوتار»، وهى آخر صيحة فى الخمس والعشرين سنة الماضية، وربما تكون نهاية التخمينات الفيزيائية. فرضها الرئيسى أن أصغر جسيمات المادة لا تأتى مثل نقط فى الفضاء، ولكن على الأصح على شكل حلقات (أو أوتار) متذبذبة متناهية فى الصغر.

التفسير الرياضى لفكرة طاقة الأوتار الفائقة يفترض أنها تدور فى حركة ـ دوامية فى فراغ هائل ذى عشرة أبعاد. ويفترض أنها تشرح ـ رياضيًّا ـ ترابط كل القوى الفيزيائية خاصة الجاذبية.

هذه الأوتار ليست مادة ولا طاقة، وتُعتبر فى نظرية ويتن هى صانعة المادة والطاقة والفضاء والزمن.

يعتقد إدوارد ويتن بصدق نظرية الأوتار نتيجة «سحرها، تماسكها وترابطها بدرجة لا تصدق، جمالها وأناقتها».

ومَثَّل بريان جرين رجع الصدى لذلك فى كتابه «العالم الأنيق...».

بكلمات أخرى، نظرية الأوتار من الناحية الرياضية أجمل من أن تكون خاطئة.

ويُعد ويتن من عباقرة الرياضيات المعدودين، فهو نظير لكل من أوكليد وپيير فرمات (مات ١٦٦٥)، ليونارد إيلر (مات ١٧٨٣)، كارل فريدريش جاوس (مات ١٨٥٥)، جوتلوب فريج (مات ١٩٢٥)، كورت جوديل، لذلك يحسن أن نأخذ كلامه على محمل الجد.

ولكن بوسع المرء أن يسأل نفسه مع چون هورجان: أليست نظرية الأوتار من قبيل محاولات اختزال الله؟

ماذا نحن فاعلون بشرح للعالم ـ الذى لا يفهمه أحد تقريبًا ـ يقتصر على حقيقة رياضية لا يمكن إثبات صحتها أو زيفها؟ ألسنا نتصرف كما لو كانت الأرقام موجودة فى الحقيقة؟ متناسين «بقدر ما تشير الأرقام إلى حقيقة، فإن قوانين الرياضيات غير مأمونة التأسيس» (أينشتاين).

عندما تكون النماذج الرياضية متماسكة أكثر من الحقيقة التى تمثلها، ألا نكون قد وصلنا إلى نقطة أصبح الاتصال فيها بالحقيقة واهيًا؟ (وصف باخيلارد الرياضيات الحديثة كمن يضغط على دواسة البنزين وذراع النقل على الوضع الحيادى).

نظرية الأوتار الفائقة قد تكون «تحليقًا رياضيًّا فى الخيال» بشكل مقبول (روجر پينروز)، «متماسكة وأنيقة» (ستيڤن ڤاينبرج). ولكنها واحدة من حالات بناء محتملة للحقيقة.

ما سبق يشرح الملاحظة الساخرة لشيلدون جلاشو «يمكن تدريس نظرية الأوتار الفائقة فى الكليات الدينية»؛ حيث «إننا نرى بوضوح اقتراب الوقت الذى سيحل فيه الإيمان مرة أخرى محل العلم».

ب ـ الأفلاطونية الجديدة

ـ عودة الروحانية

إذا علمنا أن البحث عن أصغر وحدة للمادة، هو بحث عن وحدة الوجود، فلن تكون مفاجأة أن نكتشف اقتراب عالقة الفيزياء الجديدة من المثالية الأفلاطونية أكثر من اقترابهم من مادية ماركس.

ألم يفترض أفلاطون من قبل أن العالم المادى ما هو إلا تجسيد غير كامل لأشكال صحيحة رياضيًّا، أى نظام من الأفكار المتصلة؟

على الأقل، تعلِّمنا الفيزياء الحديثة أن نبقى بمنأى عن أى ادعاء مفرط للحقيقة (أنتون زيلنجر).

أثارت الاكتشافات الحديثة فى فيزياء الجسيمات أسئلة أكثر مما قدمت من أجوبة، كثير من الأسئلة المحيرة جعلت ريتشارد فاينمان أحد عباقرة جائزة نوبل يعترف «لا أحد يفهم النظرية الكمية» ومع ذلك، فتلك الفيزياء الكمية ـ التى تقترح غياب السببية فى عالم ما تحت الذرة، وتدمر يقيننا بخصوص الزمان والمكان تحولت إلى أكثر عوامل القلق فى الثورة العلمية الحديثة، ومهدت بذلك الطريق لإعادة بروز الفلسفة فى معامل الطبيعة. كان ذلك حتميًّا، بعد أن ظهر جليًّا أن أساتذة الفيزياء الحديثة ظلوا غير قادرين ـ مثل سابقيهم ـ على خلق أو زيادة أو إفناء المادة. لا يقدر أحد فى الحقيقة على ذلك سوى الله.

فى خلال القرن التاسع عشر، تسامح العلماء بخصوص الدين، حتى يتسنى لهم ـ كما اعتقدوا ـ حل ألغاز الدنيا عقليًّا.

ولكن بلانك الذى كان بالفعل مسيحى القلب ـ حافظ على رؤية عدم تضاد الدين مع العلم، بل وجدهما مكملين أحدهما للآخر، وقال: «يظهر الله للمتدينين فى بداية تفكيرهم، أما عند علماء الطبيعة فيظهر فى ختام تفكيرهم».

بينما قال ألبرت أينشتاين ذو القلب اليهودى: «العلم بدون الدين كسيح، والدين بدون العلم أعمى».

وافق أدنجتون على ذلك قائلًا بروح فكاهية عذبة: «لست مقتنعًا بأن رياضيًّا يفهم العالم أكثر من شاعر أو صوفى، هو فقط قد يكون أفضل فى الحساب». أعلن فولفجانج پولى الذى رأى نفسه على نهج الرياضى الصوفى الأول فيثاغورث، أنه يسعى خلف «تركيبة من العلم والتصوف» حتى يستطيع أن يدرك «حلم وحدة النفس والطبيعة». كما عبَّر عن ذلك دافيد لوهم «الكلى فقط هو الحقيقى».

فى عام ١٩٢٠، مر هايزنبرج الحاصل على نوبل فى الفيزياء بتجربة دينية عميقة، أدت به إلى الاعتراف بإمكانية النبوة. اعتقد فى أواخر حياته أن الوجود والتفكير هما واحد وهما الشىء

نفسه، وأن الفيزياء الحديثة شكل جديد من الميتافيزيقا، تحاول الوصول إلى «الطبقة العليا من الحقيقة.. والتى لا يستطيع أحد التكلم عنها إلا على سبيل المجاز».

ومعه أصبحت النظرية الكمية لا يُعبر عنها، أى لا تقال، مثل التجربة الدينية، وعند هذه النقطة، عندما قام بتفسير المشاهد ما تحت الذرية، شك هايزنبرج «هل الحقيقة تتمثل أكثر فى الوضوح أم فى الغموض؟».

ـ وحدة الكون المثالية

أعاد الفيزيائيون الجدد السماح للروحانيات بالولوج فى العلوم الطبيعية، ولكن ما هى مبادئ الدين عند هؤلاء الرواد؟

برز اعتقادهم بأن العالم ليس مركبًا ثنائيًّا، من المادة والروح. وبمصطلحات فلسفية، أصبح الفيزيائيون الجدد مؤمنين بوحدة الكون، على الأقل فى عيون بلانك، أينشتاين، شرودينجر، هايزنبرج، ڤايتساكر، (مع ديراك كمنشق معروف عن المادية).

وبهذا حلت وحدة كون روحية محل وحدة كون مادية سادت فى القرن السابق لها.

كما كان دائمًا الحال عند الصوفية فى الشرق وفى الإسلام، أصبح العالم ـ ثانيًا ـ تنفيذًا لمشيئة روحية عالية، أو لكلمة، بمعنى أن العالم فعل فكرى وأن القوانين الطبيعية هى انعكاس له.

قال شرودينجر بإيجاز: «الله روح» دائم الوجود فى الحاضر خارج الزمان. عند أدينجتون «فكرة الروح الكونية للكلمة هى الخلاصة الواضحة للفيزياء النظرية الحديثة»، تمسك بـ «أن جوهر الحقيقة روحانى، ليس ماديًّا وليس ثنائيًّا من المادة والروح».

بناء على فهم العالم على أنه فكرة عظيمة وليس آلة ضخمة، استخلص هايزنبرج «حكمت الفيزياء الحديثة بكل تأكيد لصالح أفلاطون».

ـ وحدة كون جديدة

طبقًا لأينشتاين، كان الباحثون الجادون «فقط أولئك المتدينون بعمق، فى عالمنا المعاصر المادى». ولكن تلك الروحانية الجديدة ـ التى لا تبعث على الخجل ـ صارت «الدين العالمى» دون الارتباط بدين، أى دين. على الرغم من ذلك، فإن بعض مشاهير الفيزياء الحديثة مثل شرودينجر، وبوم، وكابرا، درسوا وأظهروا التعاطف مع البوذية، والتصوف، والكتب المقدسة للهندوس. وفى الواقع، يمكن أن يطلق على معظم رواد الفيزياء الحديثة «صوفية الواحد»

(ريتشارد ف. ڤايتساكر)، الذين يكنون عظيم الإعجاب للأسلوب الشرقى الدينى لاستيعاب الحقيقة ككل عضوى.

وبالمصطلحات الفلسفية، هذا الفهم يمكن النظر إليه على أنه وحدة للوجود تترك الباب مفتوحًا فى أن يصبح الله شخصًا أو لا يكون كذلك.

لقد ظنوا سابقًا أن الله هو «ميكانيكى» فى (القرن الثامن عشر)، وأنه «بيولوچى» فى (القرن التاسع عشر)، ويفهم الله الآن على أنه طاقة أو قوة!... سبحان الله!

ـ اللاأدرية المنهجية

يسود بشكل متناغم بين الجيل الثانى من الفيزيائيين المعاصرين إحساس بالإحباط وإحساس بالرهبة. قال بوم: «نحن حتى لم نلمس الذى لا يمكن قياسه». أما ستيڤن ڤاينبرج فقال: «كلما زاد فهمنا للعالم، بدا أنه بدون معنى». ويخشى چون هويلر أنه فى نهاية البحوث العلمية للإجابة النهائية، سيجد الإنسان أن لديه أسئلة أكثر مما بدأ به.

ألا يذكرنا هذا بخلاصة «منطق الطير» للصوفى الفارسى فريد الدين العطار (مات ١٢٢٠).

انطلاقًا من هذه المرجعية، يميل بعض الفيزيائيين المعاصرين إلى لاأدرية علمية متشائمة، بدلًا من تبنى المثالية الأفلاطونية. ويبدو ذلك كقاعدة منذ ساد علماء الأنجلو أمريكان بدلًا من العلماء الألمان. فقط دافيد بوم الذى درس التصوف التبتى، والهندوسية، وهاجر من الولايات المتحدة، وچون هويلر، أظهرا ميلًا أكبر إلى المثالية الأوروبية الجديدة، وفيها أن الكون ليس فيزيائيًا محضًا، ولكنه ظواهر متفاعلة؛ لأن الكون يحتاج إلى من يشاهده.

أشهر علماء الفيزياء المعاصرين من الأنجلوساكسون (طبقًا للترتيب الأبجدى) شيلدون جلاشو (هارڤارد)، روجر بينروز (كامبريدچ)، چون هويلر (پرينستون)، ستيڤن ڤاينبرج (تكساس)، إدوارد ويتن (پرينستون)، أكثرهم حاصلون على جائزة نوبل، وبمقارنتهم بأندادهم فى أوروپا الأكثر ميلًا للتدين، إن لم يكن التصوف، يبدو الأمريكيون لاأدريين، إن لم يتبنوا آراء الفلسفة الوضعية(*).

(*) مرت البشرية بثلاث مراحل فى تفكيرها، الأولى: اللاهوتية التى تفسر الكون تفسيرًا لاهوتيًا محضًا. والثانية: الميتافيزيقية التى تفسر الكون بمفاهيم مجردة، مثل مفهوم الجوهر. والثالثة: العلمية التى تفسر الكون تفسيرًا وضعيًا بالرجوع إلى الواقع الخارجى وفق قانون السببية. ومن وجهة نظر أرجست كونت، فهى الفلسفة التى تُعنى بالأشياء التى يمكن رؤيتها، أو إقامة البرهان عليها، مهملة الأفكار اللاهوتية التجريدية.

ومن حججهم الأخرى فى ذلك «المنطق الغائم».

ـ المنطق الغائم

كلما اقتربنا من «الحقيقة النهائية» فى كلٍّ من العلوم والتصوف، دخلنا فى «متناقضات». هل يمكن أن يكون ذلك لقصور المنطق الإنسانى؟ هل يمكن أن تكون «الحقيقة النهائية» غير منطقية وغير عقلانية؟

هل علينا أن ننطلق من مفهوم آخر، وهو أنه لا يوجد قانون يمنع التناقض؟ حتى لو كان كل المنطق والرياضيات الإنسانية قائمًا على عدم التناقض؟

أعلن جوتلوب فريج بما يملكه من «المنطق الكمى» بعد ٢٠٠٠ عام من سيطرة القياس المنطقى لأرسطو ـ قائلًا: لا يتعامل المنطق مع الحقيقة بهذا الشكل، ولكن يتعامل فقط مع القوانين؛ ليحكم باعتبار الجملة حقيقة أو زائفة، تتكون الجمل من كلمات، أى «إشارات من إشارات». لذلك رفض جملة لا يعنى تدمير فكرتها، ولكن يعنى ببساطة معارضتها بفكرة أخرى (وبهذا يدخل المنطق فى علم اللغويات، وفلسفة اللغويات قبل لودفيج ڤيتجنشتاين).

قام البرازيلى نيوتن دى كوستا بالباقى فى مقالته «بعد التماسك»: المنطق الغائم (١٩٦٣) وهو مبدأ تم قبوله تحت تصنيف رياضى. بل استطاع دى كوستا عام ٢٠٠٠ أن يعقد مؤتمرًا فى ساوپاولو عن منطق ما بعد التماسك. حاول الإنسان سابقًا أن يتحكم فى بيئته بالسحر أو الأساطير أو التصوف، ويحاول الآن ذلك بالفكر. ولكن بمقتضى التعريف، ما هو فوق العقل لا يمكن عقلنته. ولذلك يمكن للمرء أن يتساءل: هل الفيزياء التخمينية ما بعد التجريبية والتى لا يفهمها إلا القلة، يجب التوقف عن عرضها كعلم؟

٤ ـ فيزياء الأجسام الضخمة (الفلك)

ننتقل الآن من فيزياء الجسيمات المتناهية الصغر إلى فيزياء الأجسام الضخمة الحديثة: علم الفلك.

تمت اكتشافات مهمة منذ اكتشف أدوين هابل عام ١٩٢٩ أن الكون يتمدد(*)، وبهذا فتح الباب أمام كل الأسئلة المختفية وراء مفهوم الانفجار العظيم، والتقلص (الطوى) العظيم.

(*) ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات].

كما حدث تقدم فى قياس السرعة التى تتمدد بها المجموعات النجمية، كذلك حدث تقدم فى التحليل الكيميائى للعناصر فى الفضاء، واكتشاف الإشعاع الكونى الأساسى. وبالطبع، حدث تقدم كبير فى صناعة التلسكوبات، ومع هذا لا أحد يمكنه أن يحدد عمر الكون.

قد نستطيع ذلك عندما يتحقق مشروع الهبوط على المريخ عام ٢٠١٩.

أدت معظم الأبحاث الحديثة إلى زيادة عدم اليقين. بل بدأ التعجب من احتمال أن تكون هناك سرعتان مختلفتان للضوء! هل هناك كون آخر مشابه؟ أو كونان؟

فى الواقع، ما زالت كل الأسئلة الفلسفية الرئيسية بدون إجابة.

* كيف بدأ الكون؟

* ماذا كان قبله؟

* كيف سينتهى الكون؟

* ماذا وراء الكون؟

بالطبع، اقترحت أجوبة كثيرة لتلك الأسئلة:

* الكون عبارة عن اتصال مكانى زمانى ذى أربعة أبعاد، بدون بداية ولا نهاية، مثل السطح الكروى.

* بدأ العالم بالانفجار العظيم، ولم يكن هناك مكان ولا زمان قبل ذلك، يعنى لا شىء.

* العالم سوف يتمدد بلا نهاية.

* العالم سوف يبرد إلى الموت.

* سوف ينكمش العالم إلى بدايته الأولى (التقلص أو الطوى العظيم).

نحن نُواجه بالثقوب السوداء، السفر ـ فى مجال الزمن ـ إلى الوقت السابق، ميلاد عوالم حديثة، خصوصًا من قبل علماء أصحاب عقول خصبة مثل ستيفن هاوكنج (كمبريدج).

المشكلة، أن كل تلك الأجوبة تقع فى مجال التخمين والفلسفة، بل وحتى الأيديولوچى أكثر مما تقع فى مجال الفيزياء.

يمكن القول إن علماء الفلك المعاصرين، أصابتهم الرهبة من جراء الألغاز المتزايدة

فى الكون، كما حدث لعلماء فيزياء الجسيمات المتناهية الصغر وما قابلهم داخل الذرة وما دونها، ولكن أيضًا العكس يصح! على الأقل فى حالة ستيفن هاوكنج، الذى لم يرَ مكانًا لإله فى الكون.

هل تنطبق عليه الآيتان ١٤، ١٥ من سورة الحجر ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

فكرة الانفجار العظيم تخلو من أى معنى، إلا إذا فسرت الحدث بأنه خلق من العدم للزمن والمكان والمادة فى الوقت نفسه.

بدون ذلك الخلق، كيف جاءت المادة ذات الكثافة الهائلة التى انفجرت؟ فى عام ٢٠٠٠، حاول المعمل الأوروبى لفيزياء الجسيمات CERN فى چينيف أن يعيد تهيئة الحالة المرجح أنها وجدت بعد الانفجار الكبير بـ ١٠ ميكروثانية.

أنتجوا الكواركات ووجدوا شاهدًا على حالة جديدة للمادة النووية Quark - Gluon Plasma كثافتها تزيد عشرين مرة على المادة النووية المعروفة. أنجزوا ذلك بعمل صدام لأيونات الرصاص الثقيل فى درجة أعلى مائة ألف مرة من حرارة مركز الشمس. ولكن للأسف، ليست الأهمية العظمى لما حدث فى اللحظة الأولى لوجود الكون، ولكن فى اللحظة السابقة لذلك.

من كل ما سبق، يمكننا القول إنه ليس فى الفلك ولا غيره من العلوم ما يؤدى إلى الإلحاد أو المادية، ولكن الذى أدى إليه هو الحكم المسبق أو المنحاز فى عقول هؤلاء الأشخاص.

وفى الواقع خيالات هاوكنج أقرب للفكر الدينى من العلم التجريبى، وما هو إلا ضحية للادعاء الأيديولوچى فى الحصول على الحقيقة المطلقة، فما حصل عليه، هو وأنداده، لا يزيد على نماذج محتملة، بشكل أو بآخر، للحقيقة.

ولكن، هل ذلك عبادة أوثان؟ تجسيد الحقيقة فى مفهوم إنسانى، سابقًا فى شكل تماثيل، وحاليًّا فى شكل افتراضات علمية؟.

وعبادة التماثيل أولًا، والعلم أخيرًا.

بكلمات أخرى، فعلم الفلك أيضًا معرض للزج به فى الأيديولوچيا، تمامًا مثلما فعلت الداروينية والفرويدية، ونقول بهذا وداعًا للعلم.

■ علم الأحياء

١ ـ التطور: كخلق مبرمج

شهد «علم الأحياء وعلوم الحياة» ثورته الكوبرنيكية(*)، والتى أشعلها كتاب تشارلز دارون «أصل الأنواع» (عام ١٨٥١)، قرابة خمسين عامًا قبل ثورة الفيزياء.

واليوم يؤمن رجل الشارع فى الغرب أن الإنسان لم يُخلق كما هو، بل تطور بواسطة عمليات ملائمة وتأهيل وانتخاب طبيعى، من جده الأكبر الذى يجمعه كسلف مشترك مع القردة.

أشعلت نظرية دارون الصدامات فى المحاكم الأمريكية بين من يؤمنون بالخلق الخاص، وأولئك المؤمنين بالتطور، وصمم كل طرف على أن أولاده لن يتعلموا إلا ما يرونه صحيحًا بالنسبة لنشأة الانسان. ولقد أصبحت «الداروينية ـ Darwinism» الآن فى الغرب بمثابة الأيديولوچية، حتى أن من يعارض نظرية داروين فى بعض الدوائر يعتبر «خاطئ سياسيًّا ـ Politically incorrect»!.

وقد وُجد أقدم ما يعتقد التطوريون أنه من «أشباه الإنسان» أو «ما قبل الإنسان» فى إثيوبيا، ويرجع عمره إلى حوالى ٤,٤ ملايين سنة. وقد اكتشف العلماء المتخصصون تشابهًا فى الجينات بين الإنسان والشمپانزى بنسبة ٩٨,٤٪، وهذا الفرق البسيط (١,٦٪) هو الذى صنع كل هذا الفرق بين الكائنين!

وقد تكلم القرآن عن الخلق التطورى المتمهل ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت].

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف].

(*) نسبة إلى كوبرنيكوس الذى أعلن أن الأرض تدور حول الشمس وليس العكس، وكان ذلك يمثل ثورة فى علم الفلك. واعتبر المؤرخون ذلك هو الخط الفاصل بين العصور الوسطى والعصر الحديث فى أوروبا.

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الفرقان].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [السجدة].

هذه الأيام، قد تكون مثل أيامنا أو تكون سنة أو ألف سنة أو خمسين ألف سنة، أو مليونًا، أو حتى أكثر. ويتخذ المؤمنون بالتطور هذه الآيات وغيرها فى القرآن الكريم حجة على أن هذا المفهوم لا يتعارض مع القرآن الكريم.

ويحتج المؤمنون بالخلق المباشر بأن التشابه بين الكائنات لا يثبت التطور، وأنه لم يتم اكتشاف حفريات تمثل حلقة وصل بين أشباه الإنسان والإنسان، هذه الحلقات التى يحتم مفهوم التطور وجودها.

كذلك لم تستطع الداروينية إثبات أو حتى شرح كيفية:

- ظهور الحياة.
- ظهور الإنسان ذى الوعى وملكة اللغة.
- انتقال القدرات المكتسبة بواسطة الوراثة.

كما ثبت مؤخرًا أن التطور لم يكن مستمرًّا، ولا لازمًا، ولا متناميًا، ولكنه حدث فى قفزات. كما لم نلاحظ حالة واحدة ارتقت فيها سلالة إلى أخرى، فقط ظهر التطور داخل النوع نفسه. بكلمات أخرى؛ لا توجد فى تاريخ الحياة ـ كما تعرفه الإنسانية ـ حالة واحدة قفز فيها القرد إلى إنسان.

وربما يمكن فك ذلك الاشتباك إذا اقتنع المؤمنون بالخلق الخاص بأنه يمكن النظر إلى التطور كنوع من الخلق الإلهى، وأنه ليس من الضرورى أن يستبعد كل طرف الطرف الآخر(*).

٢ ـ ثورة البينات

احتجب «علم الأحياء» لعقود طويلة نتيجة الانبهار بالفيزياء. وإذا كان مصطلح «چينات»

(*) هناك مدرسة قوية تعرف باسم مدرسة «التطوير الإلهى Theitic evolution» تؤمن بهذا الرأى وتقدم الأدلة عليه. انظر كتاب «كيف بدأ الخلق» للدكتور عمرو شريف ـ مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١١.

قد ظهر عام ١٩٠٦، وبدأت ملامح مفهوم «الچين» تتحدد عام ١٩٠٩، فإن علم الأحياء قد بدأ فى التطور إلى علم جديد ابتداء من عام ١٩٥٠، حتى أصبح القرن العشرون هو «قرن الچينات»، أى الوحدات المكونة للكروموزوم والتى تنقل الصفات الوراثية.

الآن، يعتبر البيولوچيون الكائنات الحية كائنات عضوية تحولت ماديتها الأولى إلى مواد أكثر تعقيدًا، ثم ترتبت بدرجات مختلفة من التكامل.

تعددت الآن وجوه دراسة «الإنسان»: البعد الفيزيائى (علم الذرة)، البعد الكيميائى (علم الجزيئات)، باعتباره كائنًا حيًّا (علم الخلية)، باعتباره جسمًا ذا وظائف (علم وظائف الأعضاء)، قدراته العقلية (علم النفس)، قدراته اللغوية (علم اللغويات)، كائن اجتماعى متفاعل (علم الاجتماع)، تطلعه الدينى (علم الاجتماع الدينى).

وقد حصل چيمس واتسون (ولد عام ١٩٢٨)، وفرانسيس كريك (ولد عام ١٩١٦) على جائزة نوبل، لتوصلهما إلى معرفة البناء الحلزونى المزدوج لجزىء الحمض النووى منزوع الأوكسجين «DNS - Desoxyribonucleic Acid» الذى تتكون منه الچينات.

وفى عام ٢٠٠٠، استطاع العلم فك شفرة چينات الإنسان(*)، وتبين أن شفرتنا الوراثية تتكون من حوالى ٢٥ ألف جين وحوالى ٣,١ بليون زوج من الحروف. وفورًا دخل ذلك الإنجاز العظيم فى عالم الربح والتجارة، عن طريق كريج فينتر ـ مؤسس شركة چينوميكس فى روكفيل، وأطلق على فينتر اسم بيل جيتس تكنولوچيا الچينات (واشنطن پوست). بذلك خطا الإنسان خطواته الأولى من أجل تحسين نوعية الإنسان.

وبذلك أصبح علم البيولوچيا الجزيئية (بعد أبحاث الفضاء) المرشح لأن يكون «الصناعة المتنامية الأولى» فى القرن الواحد والعشرين. وينبغى أن ننظر بجدية إلى محاذير هذا الأمر، حتى لا نقع فى الأسوأ: «استنساخ الإنسان ـ Cloning of man»، وصحب ذلك أن وقع الإنسان فى وهم أنه قد أصبح حاملًا لعبء إعادة إنتاج نفسه، وأنه قادر على تضييق الفارق بين المصنوع والمخلوق (المُنتجَ والمولود).

٣ ـ لغز الحياة

ما زال أشد المخلصين للداروينية ـ مثل ريتشارد دوكنز (أستاذ البيولوچيا الجزيئية فى جامعة أكسفورد) ـ أبعد ما يمكن ـ كما كانوا دائمًا ـ عن تفسير ظهور الحياة.

(*) تم ذلك من خلال مشروع «الجينوم البشرى ـ Human Genome Project».

فما زالت «الوصلة المفقودة» بين المادة غير الحية والحياة، مفقودة. فلا أحد يعرف كيف تكون «السائل الأَوَّلِي ـ Primordial Soup» الذى نشأت منه الحياة منذ حوالى ٣,٨ ملايين سنة.

تضعنا نشأة الحياة فى معضلة «البيضة أم الدجاجة، أيهما أولًا؟». ماذا جاء أولًا؛ الأحماض النووية التى تتكون منها البروتينات، أم الأحماض الأمينية (الدنا DNA والرنا RNA) المطلوبة لتكوين الأحماض النووية؟ هل جاءت الحياة إلى الوجود بالتنظيم الذاتى؟ كما زعم ستيوارت كوفمان عام ١٩٩٣ فى كتابه «مصادر النظام: التنظيم الذاتى والانتخاب فى التطور». هل جاءت الحياة بمحض الصدفة؟ هل ظهرت الحياة فى لحظة تحت ظروف كيميائية ومناخية لا تتكرر؟.

عندما أجرى ستانلى ميللر تجاربه عام ١٩٥٢ على «السائل الأولى ـ Primordial Soup» الذى تصور أنه يتكون من الماء والميثان والأوكسچين والأمونيا، أنتج حمضين أمينيين، ليس أكثر.

وعندما أجرى جونتر فاختر شاوسر (ميونيخ) تجاربه عام ١٩٩٧، على سائله الأولى الذى يصوره من الميثانثيول وأول أكسيد الكربون وسلفات النيكل وسلفات الحديد، حصل على جزيئين عضويين، ليس أكثر. ولكن خلق الحياة لم يحدث فى التجربتين.

وقد حاول بعض علماء البيولوچيا حل مسألة خلق الحياة عن طريق المحاكاة بالكمبيوتر، ولكن عمليات الكمبيوتر لا تنتج حقائق ولا تحل محل التجارب.

وإذا كانت «الحياة» محض صدفة، فأى صدفة كانت؟ أليس حدث متفرد مثل هذا جديرًا بأن يطلق عليه تدخل إلهى؟ أى عملية الخلق.

وما أراه أن فكرة الاحتمال أو الصدفة تدعم فكرة الخلق الإلهى. وفى الحقيقة، يدرك كثير من البيولوچيين المعاصرين أن العالم مبنى بطريقة تفوق الفهم الإنسانى، ويدركون أن نظرياتهم وافتراضاتهم الكثيرة تعكس محدودية الفكر الإنسانى أكثر مما تكشف الحقيقة.

٤ ـ الداروينية الاجتماعية

تؤكد الداروينية الاجتماعية حتمية تأثير العوامل البيولوچية على الظواهر الاجتماعية للإنسان. مثال ذلك: تبرير التصرفات الإنسانية فى الغرب ـ بما فى ذلك الشذوذ الجنسى ـ على أساس الچينات، دون أن يكون هناك أى دليل على ذلك، كما أصبحت الچينات تقدم العذر

للجرائم! ألم تكن الضحية مخطئة عندما مرت بطريق المغتصب؟ هل كان لدى المغتصب أى خيار سوى أن يغتصب الضحية، ألا يؤكد ذلك الدستور الچينى!

ومن الغريب، أن الداروينية الاجتماعية ـ رغم حتميتها ـ تعلق أملًا كبيرًا على التعليم!، ألا تدعى أن عقول الأطفال «خالية تمامًا» ويمكن ملؤها ـ حسبما نريد ـ بالتعليم، وفى هذه المرة المخطئون ضحايا، بسبب تعليمهم وليس بسبب چيناتهم؟!.

ألا تمثل الداروينية الاجتماعية مدخلًا قاتلًا للأخلاق فى الغرب؟!.

■ علم النفس

أسهمت الفرويدية ـ بكل تأكيد ـ فى المادية الإلحادية بقدر ما أسهمت الدَّاروينية، وفى كلتا الحالتين تم استخدام العلم للترويج بشكل سيئ للنظريتين.

وقد قام سيجموند فرويد (توفى عام ١٩٣٩) بسلسلة من الدراسات أدت إلى بعض الاكتشافات فى مجال الوظائف الروحية والعاطفية والفكرية للنفس، وقد رأى فرويد أن هذه الوظائف مبنية فى ثلاثة مستويات: «الهو» (اللاوعى)، والـ «الأنا» (الأنا الواعى)، و«الأنا العليا» (الضمير). لكن فرويد هبط بـ «الأنا» من علیائها التى وصلت إليها مع هيجل وفيخته، وجعلها من صنع (الهو) المسيطر عليه الغرائز، بدلًا من أن يكون المتحكم فيها هو الضمير (آندريه جرين).

وبناء على هذا التصور، أقنع فرويد نفسه بالآتى:

- البناء النفسى للفرد تحدده مسبقًا بيئته ونشأته.
- ينشأ الدافع الحاسم لتصرفات الإنسان من اللاوعى؛ حيث لا دور لقوانين الزمان والمكان والمنطق.
- يحرك الفرد عدة دوافع غريزية، أهمها الدافع الجنسى، والوسيلة الأساسية للتحكم فيها هو التسامى بها نحو تحقيق أعمالٍ مفيدة.
- مبدأ الشهوة له اليد العليا فى التحكم فى حياة البشر.

ويبدو أن هذه المفاهيم قد دعمتها النجاحات العلاجية لمرضى فرويد الذين يعانون من (الهيستيريا). والخطأ الكبير الذى وقع فيه فرويد أنه اتخذ من النجاح العملى فى علاج الحالات

المرضية دليلًا على صدق الافتراضات الأساسية التى شكل على أساسها تصوره عن بنية النفس الإنسانية السَّوية.

وبإدخال منهج التحليل النفسى الفرويدى إلى العلاج النفسى، أصبح فرويد ـ المتقد حماسه للإلحاد، والمادى المتمكن، صاحب الأحكام المسبقة عن سلوك الإنسان ـ ذا تأثير هائل على علم نفس الإنسان وكذلك علم الاجتماع الدينى.

وقد اتخذ الكثيرون الفرويدية عذرًا للتنصل من مسئولياتهم، أليست تصرفاتهم صادرة من اللاوعى؟ وأصبح التحرر من (إملاءات الضمير) على قمة قائمة الواجبات.

باختصار، لا تكتفى الفرويدية بأن تغذى المادية والجنس ومبدأ أن اللذة فوق كل شىء، بل تنفث السموم فى صرح التقاليد والأخلاق. ويرى ويليام أوفلاس أن علم النفس الفرويدى أصبح المرض الذى يحتاج للعلاج!. وأنه حين أراد فرويد أن يبدد «أوهام الدين»، فقد انتهى الأمر بأن أصبح من الضرورى تبديد «أوهام فرويد» عن طبيعة الإنسان.

وفى الواقع، لقد أصبحت الفرويدية شكلًا جديدًا لدين سحرى زائف، تحتل العلاقة الجنسية فيه مكانة بارزة. وأصبح فرويد وزملاؤه يمارسون الاستبداد السابق للكهنوت المسيحى.

فعندما أنكر ألفريد أدلر (توفى عام ١٩٣٧)، وكارل جوستاف الصغير (توفى عام ١٩٦١) محورية الجنس، واعتقدا فى أهمية «نزعة السيطرة»، وحقيقة بناء «الذاكرة الجمعية» أو «اللاوعى الجمعى»، اعتبرهما الفرويديون مجدفين ومهرطقين لا يجوز الاتصال بهما.

وكما حدث لعلماء فيزياء الجسيمات متناهية الصغر (فيزياء الكم)، اقترب بعض علماء النفس بعد الفرويدية ـ مثل إريك فروم ـ من حكمة الشرق. وكانت متمثلة ـ فى حالة فروم ـ فى فلسفة «زن البوذية»، وذلك بعد أن شك فروم فى كفاية الفكر والمنطق الإنسانى، بل إنه أدرك فراغ الغرب وأن عقلانيته ما هى إلا أسطورة.

■ أبحاث الدماغ (المخ)

أعلن العلماء فى الولايات المتحدة، أن العقد الأخير من القرن العشرين هو عقد «المخ البشرى»، وفى ألمانيا دعا يود بيرت ساكمان ـ الحاصل على جائزة نوبل ـ أن يُخصص العقد الحالى من القرن الواحد والعشرين للبحث فى «المخ البشرى».

إن سر أهمية هذا المجال أن المخ هو مكان التقاء المادة والعقل، وهو مجال صعب بقدر ما هو جذاب؛ لأن «البحث فى المخ» عبارة عن مهمة دوارة: نظامًا معرفيًّا، يحلل نفسه!.

يبدو ذلك سهلًا عندما تنحصر المهمة فى الاستجابات الحسية والحركية، والغرائز المماثلة لما عند الحيوان، ولكن عندما يتناول الأمر العمليات العقلية التى تميز الإنسان وحده، مثل العواطف والانفعالات، والأفكار، والذكريات، والنوايا، وقوة الإرادة، فالأمر يختلف.

لقد حدث تقدم كبير فى تقنيات دراسة المخ، ومنها تصوير المخ بالأشعة المقطعية، والتصوير بالرنين المغناطيسى والتصوير بتقنية الانبعاث البيزوترونى، وقد أمكن بهذه التقنيات البحث فى المخ الإنسانى دون تدميره.

وبعد فرويد بمائة عام، لم يعد التركيز على الوعى الإنسانى والتوظيف «النفسى والجسدى» للنفس الإنسانية، ولكن على أبسط وظائف المخ؛ كيف تعمل حواسنا؟ كيف تعمل الذاكرة؟ إن المشكلة أن مخنا وجود بين المادة واللامادة. وكما أن علم الأحياء ليس علم كيمياء تطبيقية، فإن علم النفس ليس علم أحياء تطبيقى (فيليب أندرسون). باختصار، تبدو قراءة الأفكار والمشاعر داخل الستة عشر بليون خلية التى يتركب منها المخ عملية مستحيلة.

فقط، بعد التقدم فى دراسة هذه المجالات البسيطة (نسبيًّا)، سوف يكون هناك معنى لمحاولة اكتشاف أعظم الألغاز: الوعى بالهوية والذات. كيف «ينتج» الوعى؟ وكيف يتفاعل مع الخلايا العصبية فى المخ؟ هل الوعى بالذات يزيد على كونه مجرد إدراك حسىٍّ؟ وكيف يستمر ذلك الوعى طوال العمر؟

إحدى المشاكل هى أن «الوعى الذاتى» لا يمكن أن نجده إلا فى الإنسان فقط، ولذلك نقوم بدراسته من خلال المراقبة الذاتية؛ إذ لا يمكن ـ بالطبع ـ تعريض البشر لتجارب تتناول الشبكة العصبية لأدمغتنا. كيف يمكننا بوعينا الذاتى حل لغز «وعينا الذاتى»؟!.

بناء على ذلك، اعتبر جون هورجان (وآخرون) أن حقيقة الإنسان لا تقف عند وجوده المادى، بل أن «روح الإنسان» تمثل امتدادًا له، بل وتمثل امتدادًا خارجيًّا للعلم بصفة عامة.

وعلى العكس، حاول بعض علماء الأحياء الذين تخصصوا فى علوم الأعصاب نفى وجود الروح، ومن هؤلاء فرانسيس كريك، الذى يرى أن الإنسان (فى التحليل النهائى) ما هو إلا كومة أعصاب. ويقف فى مواجهة هذا الرأى أحد أنصار الرأى الأول، وهو چون إيكلز البريطانى (الحاصل على جائزة نوبل فى أبحاث المخ)، والذى لم يترجم نفس المعلومات

بأسلوب مادى، ولكن طرح فى كتابه «الذات والمخ التابع لها» نظريته فى الوعى، والتى تعتمد على ثنائية استقلال الوعى عن أساسه المادى، وذلك على غرار النظرية الكمية، التى ترى أن ظاهر المادة يختلف عن حقيقتها.

الفرق ـ ببساطة ـ بين إيكلز وكريك، أن الأول متدين والثانى ليس متدينًا.

المخ هو أعقد وجود يواجه العلم، وإذا كان البعض يظن أن اللجوء للكمبيوتر يمكن أن يحل مشكلة فهم المخ، فإن الفاهمين يسألونهم؛ كيف يمكن أن ننقل للكمبيوتر ما لا نفهمه! وعينا الذاتى، أى روحنا؟!

■ إعادة اكتشاف الروح

من هذا التلخيص للخطوط العريضة للتطور العلمى فى القرن العشرين، يمكننا القول بأن العلم لم يعد ينكر جدارة طرح الأسئلة الأساسية الكبرى:

- لماذا يوجد الوجود بدلًا من ألا يوجد شىء، أى لماذا ظهر الوجود بدلًا من أن يستمر العدم؟
- من أين جاء العالم؟
- من أين جاء الذكاء الإنسانى؟
- لماذا نحن هنا؟ وإلى أين نحن ذاهبون؟

نعم، يعصف بالإنسان (فى الغرب) هذا الإلحاح العقلى للمعرفة، وأيضًا الاحتياج العاطفى للتفسير. فأين المفر:

١ ـ الطريق إلى الشرق

كما رأينا مع الفيزياء الحديثة، أصبح العلم اليوم أكثر استعدادًا ـ من أى وقت مضى ـ للاعتراف بأن فى استطاعتنا صياغة أسئلة لا يمكننا الإجابة عنها؛ لأن ذلك يفوق إمكانياتنا المعرفية.

نحن ـ فى الحقيقة ـ نخدع أنفسنا إذا حاولنا تقديم إجابات علمية عن أسئلة فلسفية. إن أقصى ما يستطيعه العقل البشرى هو اكتشاف القوانين الطبيعية التى تناسب طريقة عمله (جاستون باشلارد).

ولما كان وصفنا شديد الاختزال للكون هو الذى يُمكننا من أن نفهمه، فإننا فى الواقع نفهم هذا الوصف المختزل بدلًا من أن نفهم الحقيقة ذاتها، وما يبدو لنا جميلًا لأنه «بسيط» إنما هو كذلك نتيجة التبسيط، بل لقد أصبحنا مستعدين لأن نعتبر الحقيقة هى الخطأ!! (كابرا).

وفى مجتمعات ما بعد الحداثة، لم يعد الناس يتوقعون من العلم أن يخرج بمفهوم واحد محدد للحقيقة، ويبدو أن كل ما يمكن للناس أن يفهموه عن الوجود مجرد افتراض بـ:

- أن كل شىء نسبى ـ طبقًا لأينشتاين.
- أن كل شىء مباح ـ طبقًا لفرويد.
- أنه تم إثبات أن لا شىء يمكن إثباته ـ طبقًا لجوديل (حتى لو لم يكن الناس قد سمعوا به).

لذلك يمكن للمرء أن يلاحظ قلقًا عميقًا بين العلماء المعاصرين؛ حيث يبدو أنهم يشعرون بأن الغرب قد وقع فى أخطاء غاية فى الفداحة، مما جعل شخصًا مثل إيليا پريجوچين يتوقع «عودة الافتتان والانبهار بالطبيعة»، طالما أصبحنا متأكدين «أن الإنسان قد وصل إلى آخر حدود ما يمكن التيقن منه». لذلك أصبحت الحكمة الشرقية لازمة، ولا يمكن الاستغناء عنها لتصحيح ذلك.

ولذلك، وقع عالم عبقرى فى علم الأحياء والأعصاب مثل هانثر ستنت (من جامعة بيركلى) فى غزل مع البوذية.

وبدوره، يحاول فريتوف كاپرا فى كتابه الدينى «تاوية(*) الفيزياء» ١٩٧٥، ١٩٨٢، دمج العلوم الطبيعية كما عرفها الغرب مع التصوف الشرقى، فيما يُسمى بـ«فيزياء العصر الحديث». فى هذا الكتاب ـ مع كتب أخرى أهداها إلى ممارس الشامانية (كارلوس كاستندا)، ومعبود موسيقى الچاز الحر (چون كولتران)، والفيزيائى (فيرنر هايزنبرج)، والحكيم الهندوسى (كريشنامورتى) ـ لفت كاپرا الانتباه للفروق الحيوية بين وجهات النظر الغربية التى تربى عليها وبين الفلسفات الشرقية، كما تظهر فى الهندوسية والبوذية والكونفوشيوسية والتاوية وعقيدة زن. وهو يرى أن الغرب يُفَضل:

(*) التاوية: مذهب فلسفى دينى صينى، يتبنى وحدة الوجود، وهى تشكل جزءًا من الكونفوشيوسية، ممتزجًا مع البوذية.

- القيم الذكورية على القيم الأنثوية.
- التحليل على التركيب.
- العلم على الدين.
- التنافس على التعاون.
- التقدم على المحافظة.
- القنبلة على بوذا.
- عالم ميكانيكى ثابت على عالم حى متحرك.

ويمكن للمرء أن يضيف الكمية على الكيفية.

ويتفق كابرا مع كثير من المتصوفين عبر العصور، أنه يمكن الوصول إلى المعرفة المطلقة ـ كتجربة وليس كفكرة فلسفية ـ من خلال أحوال خاصة للوعى، وفقط بعد إسكات صوت العقل.

وكما فى التصوف، يتوقع كابرا أن تزيل الفيزياء الحديثة كل المتناقضات (بين المادة والروح، المادة والطاقة، الجسيمات وأمواج الطاقة)، وتصل لنقطة يندمج فيها الملاحِظ والملاحَظ فى وحدة واحدة: وحدة صوفية تتجاوز الفيزياء الحديثة. ويعتقد كابرا أن كلًّا من الفيزياء الحديثة والتصوف، لا يمكن التعبير عن مكنونه بالألفاظ.

قد يجد كابرا الراحة فى التشابهات بين رؤية العالم من خلال الفيزياء الحديثة (حسب تفسيره لها) وقصص الشرق الرمزية عن الحقيقة، ولكن هذا لا يثبت صحتهما؛ لأن كلًّا منهما لا يمكن البرهنة عليه. وفى الحقيقة، سيكون من الخطأ أن نرى العلم والتصوف مكملين لبعضهما البعض؛ لأن هذا يقتضى بداهة صحة كل منهما، الأفضل من ذلك أن نراهما طريقتين متبادلتين لحدس الحقيقة النهائية.

ولماذا تَهرَّب كابرا من بحث التشابهات مع أديان التوحيد الثلاثة الإبراهيمية؟ اعتقد أنه طالما لم يتخل عن الوعى الذاتى والهوية الفردية لشخصه، فلن يتأتى له استيعاب الحقيقة العليا والأخيرة التى تطرحها الديانات السماوية، وسيظل ينظر إليها على أنها عملية وجودية فقط، وليس على أنه إله.

خلص كابرا إلى أن العلم لا يحتاج إلى التصوف، لكن الإنسان يحتاج إلى الاثنين. فالإنسان الغربى يستطيع عن طريق «ثورة ثقافية» باستخدام العلم والإيمان، أن يقهر رؤيته الميكانيكية المتشظية للعالم، وهى السمة الغالبة للعلم الغربى. أى ينبغى أن تتشارك أنوار العقل وأنوار الإيمان، داخل تركيبة معرفية عظيمة. عندها، والكلام ما زال لكابرا، سوف تبرهن التجربة العملية، والخبرة الصوفية على صحة كلٍّ منهما.

٢ ـ النسبية اليائسة

هناك آخرون يميلون للاأدرية بشكل كبير، مثلما رأينا فيما سبق؛ حيث رأوا فى هذه الظاهرة الدينية الجديدة بين العلماء «هجرة إلى العاطفة» (أتلان). بالنسبة إليهم، فالتصوف مع ما يحملونه من تناقض، وغرامهم بالمعارضة مع احتفائهم بما يناقض العقل، يماثل لعبة (الاستغماية). لقد رأوا أن «العلوم» السحرية التقليدية، بمعنى الغنوصية (الباطنية)، لا تقل سذاجة عن «المادية العلمية» القديمة.

لذلك، فمعظم العلماء المعاصرين، بدلًا من محاولة إيجاد طريقة للخروج من مأزقهم المعرفى، اتجهوا إلى الحكمة الشرقية، نحو نسبية يائسة أصبحت علامة على ما بعد الحداثة. أصر هؤلاء الناس على أنه لا يمكن تمييز المنطقى من غير المنطقى. أصبحوا يخجلون من الحديث عن «الحقيقة» و«الصدق» و«العقل» و«الموضوعية»، إلَّا فى شكل «استشهادات مذعورة» (سوزان هاك)، حتى إن فيلسوفًا مثل ريتشارد رورتى بواقعيته المتطرفة ترك البحث عن الصدق. تحددت فلسفته بالأخلاقية أثناء بحثه عن كيف يجعل العالم مكانًا أفضل بدون السؤال عن ماذا يعنى كل ذلك؟

اعتبرت شكوك الحداثة البحث عن تفسير للحقيقة العظمى ليس إلا حنينًا إلى ماضى الأيام الجميلة للجمود العقلى للكنيسة. اعتبرت الحقيقة العظمى، رواية خيالية عظيمة، لا يمكن إطلاقًا الوصول إليها ـ هذا إذا كانت موجودة على الإطلاق ـ والصمت هو الإجابة الأفضل عنها. ألم يكن أينشتاين هو الذى كتب «لا يوجد ما هو أكثر استعصاء على الفهم، من أن يكون العالم مفهومًا!»، أما پول فيرابند فى عمله «فى ترجمتى» فقد صاغها كالتالى: «لقد وصلت إلى الاقتناع أن الأمر كله ليس إلا فوضى مجنونة».

هذه النسبية اللاأدرية، التى قوتها ملاحظة أن الإدراك الإنسانى فى العلم، وأيضًا فى غيره، هو باستمرار ذاتى، بمعنى أنه يتأثر بالقائم بالملاحظة. وكل كائن مدرك يحيا فى حقيقته الذاتية؛ لذلك لا يمكننا فى الحقيقة ملاحظة القائم بالملاحظة. هكذا، لا وجود إلا للحقيقة الذاتية

فقط. نستطيع أن نعرف العالم فقط رمزيًّا، كما يتمثل لغويًّا ورياضيًّا. وذلك ـ بالطبع ـ ليس إلا «مفهوم العقل المهزوم» (يرجن هابرماس).

فى العلوم الاجتماعية، كانت نسبية ما بعد الحداثة اليائسة ذات خبث فتاك. بتصنيفهم «للآخر»، وقبولهم لأى «اختلاف» كان، أصبح علماء الأنسنة (الأنثربولوچى) أقرب للشعراء منهم للعلماء. «لماذا نتباحث اليوم فيما سوف يتغير غدًا على أى الأحوال»؟، هذا هو السؤال الساخر المثالى لعلماء اجتماع ما بعد الحداثة. نعم، يمكن للمرء أن ينقد الأحكام الاجتماعية بتوضيح مدى الذاتية التى هى عليها. ولكن أليس هذا النقد بدوره تأثر بالظروف الاجتماعية للناقد؟ كيف يمكن الخروج من النقد الذاتى مع هذه الدائرة الجهنمية؟

الأسوأ، هى الضربة التى وجهتها «النظرية الكمية» إلى فكرة السببية، مما أعطى مزيدًا من المصداقية إلى إعادة ترديد هجوم (هيوم) بواسطة (ويتجنشتاين) على السببية «لا يمكننا استخلاص الأحداث المستقبلية من التى تحدث حاليًّا». أصبحت الحصيلة هى «كل شىء يجوز» بشكل منهجى (فيرابند)، وسرت موجة جديدة من مذهب «الإسمانية»، ترتبط بشدة بالفلسفة اللغوية لـ «لودفيج ويتجنشتاين». ويعتقد هؤلاء الناس أن اندفاعنا لتلمس الحقيقة الخاصة للكون لن يتعدى على الإطلاق حاجز أسماء الأشياء. وللحسرة، ففى اللحظة التى نطلق فيها اسمًا على شىء، نصبح أكثر ابتعادًا عن حقيقته من ذى قبل. ذلك لأن «حقيقة الشىء سابقة على اللغة»، وأن اللغة «تضللنا مثلما قد تفعل الملابس للجسم العارى» (أتلان).

بهذا الأسلوب، كان طبيعيًّا أن يصل (هنرى أتلان) وأصحابه بعد الحداثيين إلى تعددية للإدراك الحسى تبلغ أوجها فى الفكرة القائلة، إن أقصى ما يمكننا فعله، هو أن ننغمس فى مباريات لغوية، «لغويات» (ويتجنشتاين). وهنا، فإن التواجد لكلمة «الله» هى «البرهان» الوحيد والكافى على وجود الله.

كل المحاولات لكشف غموض الحقيقة، بما فى ذلك العلم، والفن، والدين، هى مجرد مباريات لغوية مختلفة التفسير.

نحن لا نستطيع المساعدة فى لعب هذه المباريات؛ لأن أسلوب خلقنا لا يساعد على ترتيب الأمور فى «نظام». ولكن، وفى كل الأحوال، لا ينبغى لنا أخذ أية نتيجة بجدية. فالقاعدة الحاكمة فى أية «لغة» هى: لا تؤمن بها. الحداثة أيضًا، هى مجرد نموذج إضافى يعلن عن نفسه.

خلاصة ما سبق، يمكن للمرء فقط أن يأمل فى أن العلم الغربى سوف يتبع اتجاهاته الموصوفة

نحو اتجاه دينى جديد. ويجب أيضًا على المجتمع الغربى أن ينصرف بصرامة عن ممارسة المادية، التى هى على هيئة استغراق بلا رابط فى اللذة.

* * *

• مذهب المتعة المادية

■ العلم والأخلاق

ليس غريبًا توقع أن العلم لا يستطيع مساعدتنا على معرفة كيف نحيا أخلاقيًّا وروحانيًّا. إن وظيفته هى تفسير ما هو قائم، وليس ما يجب فعله. بهذا المفهوم، لا يستطيع العلم تزويد المجتمع بالأخلاقيات، ولكن يستطيع بالتأكيد المساعدة على تدميرها، وذلك هو بالضبط ما ظل العلم ـ بفضل سوء إدراكه، وبفضل المتلاعبين به ـ يفعله خلال القرنين الأخيرين بتقويض أسس الإيمان بالله، من خلال مادية «علمية»، وأخيرًا وليس آخرًا، فى علم الأحياء، وعلم النفس، فإذا كان الناس مجرد «حزمة من الإرادة والشخصية»، فلماذا ينبغى أن تصبح لهم حقوق وكرامة؟ (أوفالس).

لم يتظاهر العلم فقط بوجود برنامج بدون مبرمج، لكن الأسوأ أنه تصرف كما لو كان العلم وحده هو الذى يعول عليه، أما ما عداه، بما فى ذلك الفن والدين، فهو مقبول فقط كمجرد زخرفة «حتى انقشعت ضلالات القرن العشرين وجعلتنا نفهم أن الحقيقة العلمية هى مجرد زخرفة للحقيقة» (أتلان). فى الحقيقة، ونتيجة لتأثير العلم الوضعى والمادى، أصبح الغرب «أول حضارة ملحدة فى تاريخ البشرية» (فاسلاف هافيل). حيث لا يوجد مكان لأى شىء لا يخضع لعملية الظاهرة الطبيعية، لا الروح، ولا الإرادة والرغبة، ولا العواطف والفن، ولا الدين. هكذا، نعيش فى حضارة «المنطق»، التى تحتضن فقط العلاقات الكمية، وتعتبر أى قبول حدسى للحقيقة الأولية غير القابلة للانقسام، مجرد «لامنطقى».

■ العلم والحضارة

ينظر الناس للعلماء على أنهم يعملون بعيدًا داخل «أبراجهم العاجية»، تمامًا مثلما دفن كارل ماركس نفسه داخل مكتبة لندن. وفى الحقيقة، قد لا تكون لغتهم، ونظرياتهم، وحساباتهم، فى متناول «رجل الشارع». ومع ذلك، سيكون من الخطأ الجسيم الاعتقاد أن العلم والأفكار

السياسية الخلاقة لم تجد طريقها نزولًا إلى المجتمع العريض. وقد يتطلب الأمر قرنًا بكامله، وعندها ـ وبشكل أكثر نجاحًا على الأرجح ـ فإن فكر أناس مثل ماركس، وداروين، وفرويد، ونيتشه، وأينشتاين، سوف يشكل نموذجًا يحدد للعامة ما يُعتبر صحيحًا: المنظومة الكاملة من المعتقدات، والقيم، والأساليب والمفاهيم التى يشترك فيها مجتمع ما. لذلك، فإن التطورات فى الماركسية، والعلوم الطبيعية التى أوضحناها حتى الآن، لها صدى مباشر على الحضارة الغربية، وأيضًا من خلال العولمة، على الفكر الإنسانى والسلوك العالمى.

ويصح ذلك أيضًا على الشيوعية، والتى كما قد قلت، قد اختفت مثل الشبح، ولكنها قد تركت هى أيضًا آثارها. وفى الحقيقة، فإن كل ديمقراطية غربية بما فى ذلك الولايات المتحدة، هى اليوم أكثر اشتراكية مما يظن كثير من الناس. لقد وصلت الرفاهية إلى حد يمنع التوفير، ويغذى الاعتماد على العناية التى توفرها الدولة. لقد خفضت الدولة الغربية بنجاح التفاعل الاجتماعى بين رعاياها، بأن قدمت لهم الذى حققته من قبل المبادرة المحلية. وفى كل مكان تقريبًا، وليس فقط أثناء اجتماعات مجموعة الثمانية (G8)، يتغذى المرء على مشاعر الإثارة والتهييج المضاد للرأسمالية من «مدارس الإدراك الشاملة» التى تحل محل كليات الصفوة. توضع الثقافة فى متناول الجميع، حتى لو اقتضى ذلك تدمير مؤسسات ثقافية. والأسوأ، فالمرء على استعداد لإضعاف المتين اقتصاديًا، حتى لو أدى ذلك إلى إضعاف الموقف الاقتصادى للجميع.

ثورة الطلبة اليساريين عام ١٩٦٨ ضد «رأسمالية الدولة الاحتكارية» هى مثال واضح على عملية «نزول» المعلومات هذه. وبينما لم يصل الطلبة إلى شىء على المستوى السياسى، فقد غيروا بالتأكيد من حضارتهم. ومن يومها، فى أوروبا، أصبحت اللغة وكذلك الزى بعيدين عن الرسمية، وتحرر الجنس، وانحط قدر الأسرة، وحظيت المخدرات بكثير من القبول، واحتُقرت السلطة بكل أشكالها.

وفى العموم، فإن «الميراث» من العلم، والعلم الزائف، من القرن التاسع عشر والقرن العشرين، بدأ يثمر مجتمعًا لاأدريًا، نفعيًا، استهلاكيًا موغلًا فى الفردية، وليبراليًا، بما يعنى حضارة تنشد المتعة حتى النخاع، ونحن نراها عن كثب فى هذه الأيام.

• اللذة ـ أولوية المتعة ـ كأسلوب حياة

يقوم مذهب المتعة على شكل فظ من المادية، يمكن اقتفاء أثره فى كل مجالات الحياة الغربية التى تتضمن:

الدين ـ القيم ـ السلام ـ الاقتصاد ـ الإعلام ـ التعليم ـ الحياة الأسرية ـ الجنس ـ الإجهاض ـ المخدرات.

بالتأكيد، لست أنا أول من يتهم العالم الغربى باتباع ذلك الطريق المفضى إلى الكارثة. من بين المسلمين، الفيلسوف الفرنسى المسلم رينيه چينو، أو الشيخ عبد الواحد يحيى من الطريقة الشاذلية (مات ١٩٥٢ فى القاهرة)، قد فعل ذلك بكتب منذرة مثل «عصر الكم وعلامات الوقت»، وأيضًا «مشكلة العالم الغربى». وكما فعل النمساوى محمد أسد (إلياس ليوپولدڤايس، مات ١٩٩٢)، بتحليله المتقد «الإسلام على مفترق الطرق» الذى نشر فى لاهور عام ١٩٣٤. وأيضًا، قام بذلك «ويليام أوفالس» الأمريكى المهموم، صاحب القيم المحافظة، بكتاب يفصح قليله عن الكثير: «قداس للسياسات الحديثة ـ مأساة التنوير وتحديات الألفية الجديدة» (١٩٩٧).

كان چينو ذا إدراك عظيم، عندما حدد أن المفهوم الجوهرى «للحركة الإنسانية»، الذى صيغ خلال فترة النهضة الأوروپية، يلخص مقدمًا إجمالى البرنامج الذى ستأتى به الحضارة المعاصرة: كل شىء سوف يختزل إلى المستوى البشرى، وإلى المقاييس البشرية، لذلك كان من الممكن التنبؤ بأن الحضارة المعاصرة سوف تصل فى النهاية إلى الغوص مرحلة تلو الأخرى، إلى مستوى أدنى الرغبات الإنسانية.

لذلك، أستطيع الاختصار، وسوف يجنبنى ذلك الانطباع بأنى شخص أخلاقى فى غاية الجمود، أو شخص أعور، فبالطبع عندما أنتقد التطور الغربى، لا أتجاهل أن عالم الإسلام، هو أيضًا ليس بحالة طيبة، ويعانى من غالبية هذه المساوئ نفسها، مع الأخذ فى الاعتبار أن الإسلام فى جوهره، والخبرة الحياتية للمسلمين ليسا بالضرورة متطابقين.

١ ـ دين ما بعد الحداثة

تعلم جيدًا الرجل العصرى فى أوروپا درس اللاأدرية، ورفض ـ بالأسلوب المثالى لما بعد الحداثة ـ كل الأديان باعتبارها «روايات عظيمة». وبالتالى غدا الدين ـ عند التسامح معه ـ مهمشًا، وفى الدول العلمانية انزوى بعيدًا عن الأنظار. يؤمن معظم الناس فى الغرب أن الدين يتجه نحو الاختفاء تدريجيًا، ولذلك يصابون بالذعر عندما يصل إلى علمهم ما يتعلق بالحيوية المتجددة للإسلام (هيوبرت سيورت).

وعلى النقيض من إيران الحالية، فالنظام العلمانى ـ الذى يحظر أى دور دستورى لرجال

الدين فى الحكومة ـ هو فى الوقت الحالى النظام الذى لا خلاف عليه فى أوروبا، على الرغم من أن الملكية البريطانية، وملوك وملكات الدول الإسكندناڤية ما يزالون هم رؤوس الكنيسة الأنجليكية، والكنيسة اللوثرية على الترتيب.

أما عن العلمانية، فهى مختلفة؛ حيث إنها مطبقة حرفيًّا فى فرنسا وحدها. كل الدول الأوروبية الأخرى تسمح للدين بالتكامل إلى حد ما مع الدولة والمجتمع. وفى الحالات المتطرفة، مثل ألمانيا، يمكن أن يصل ذلك حتى إلى فرض ضرائب من جانب الدولة على الكنائس الفردية. وفى الولايات المتحدة، فإن اجتماعات الأحزاب، والجلسات الافتتاحية للكونجرس تبدأ بالصلاة (ويشمل ذلك صلاة إسلامية)، كما أن الرموز الدينية (بما فيها الهلال الإسلامى) ترفع على سارية البيت الأبيض، حتى إن الرئيس كلينتون قد دعا المسلمين لمأدبة الإفطار فى مقره الرسمى.

لكنه سيكون من الخطأ الاعتقاد بأن الدين، فى الدول الأوروبية العلمانية، يمثل أكثر من زخرفة، أو عنصر فولكلورى، أو تقليد عار من القوة. لذلك، فإن جيرهارد شرودر المستشار الحالى فى ألمانيا، لا يستطيع فقط إلا توجيه خطاب إلى الأمة فى التليفزيون، فى مناسبة الكريسماس، ولكن بدون ذكر المسيح أو الله فى هذا الخطاب.

وهكذا، لأنك ألقيت بالدين خارجًا من الباب الأمامى، فقد عاد مرة أخرى متنكرًا من خلال الباب الخلفى. ما خسرته الكنائس ـ وخسائرها من جهة ثقة المسيحيين فيها، ومن ثم حضورهم إليها مأساوية ـ حصلت عليه الطوائف، وجماعات الأديان الشبابية والحلقات الفئوية السرية. هناك جماعات العهد الجديد التى تتعبد داخل أهرام الجيزة. وتستقطب البوذية قطاعات من الناس الذين يرغبون فى الاعتقاد فى تناسخ الأرواح ليتمكنوا من الحصول على فرصة ثانية. شعر ١٧٪ من مجمل الألمان فى عام ١٩٩٣ بالانجذاب تجاه هذه الفكرة. الانبعاثيون، الذين يعيدون عبادة إخناتون للشمس، استعادوا شعبيتهم مرة أخرى. وبدأ مايكل چاكسون إحياء حفلات إضاءة شمعة «من أجل عالم أفضل».

تحتل الصدارة الآن، بالتساوى، أديان عبادة القمر، والعلموية والتنجيم، والملائكة، والشيطان، وكل شخص يقدم الوعد «بالوعى الكونى». فى الواقع، هذا التنوع الطوائفى الكبير يظل شاهدًا على حقيقة ثبات حجم اللادينية خلال أى فترة زمنية محددة، على الرغم من العاطفة الدينية المتشتتة، والتى تتشكل من الخرافة غالبًا.

هذه الموجة الجديدة من التدين، تجد جذورها فى الحنين إلى التوحد العضوى، والبحث

عن المعنى، وكلاهما غائب بشدة فى الحياة المعاصرة، وخاصة عند أتباع حركة «الخضر» الذين يجددون رابطة مثيرة للغاية مع الطبيعة، تظهر على شكل عالم غامض ومقدس (ومن المثير، كما أوضح أوتو ماركارد، أن لائحة «الخضر» محافظة فقط فيما يتعلق بالمحافظة على الطبيعة، وليس الثقافة).

على العموم، فقد تمت خصخصة الدين فى الغرب؛ حيث أصبح المزيد من الناس «شبه متوحدين» وسعداء بالحياة منفردين بأنفسهم، وفى مثل هذا المناخ المفرط فى الفردية، فإن للأديان السماوية ورجالها فرصة ضعيفة، وأصبح الدين ذاتيًا بالكلية، وانتقائيًا، مجموعة من وجهات النظر المتسقة أو حتى المتضاربة، بشرط ألا تعترض طريق الرغبات والعواطف الشخصية.

على الأرجح، لن يقول معظم الناس فى أوروبا عن أنفسهم أنهم ملحدون، ولكن سيعترفون بأنهم مؤمنون بشكل غير محدد بالله، دون الأديان السماوية. هذه التعددية الدينية التى بلا حدود فتحت بالطبع الطريق نحو تسامحية دينية من نوع «كل شىء يجوز».

المسلمون فقط والملحدون هم الذين لا يقبلون النسبية فى عقائدهم؛ لأن الملحد إذا أقر باحتمال خطئه، فسوف يصبح متشككًا أو لاأدريًا. وكذلك لا يقر المسلم أن الإسلام هو مجرد رؤيته الشخصية للحقيقة، دون صلاحيته للناس أجمعين.

من المرجح أن تنهج الغالبية فى أوروبا الغربية نهجًا إلحاديًا، مما يشكل النقيض التام للموقف فى أمريكا الشمالية؛ حيث تنتشر حوارات مثل:

«عند هذه النقطة بالطبع، فإن الكنيسة الأسقفية أفضل من المعمدانية...، أو....، ولكن....».

٢ ـ ثورة القيم

لا يستطيع العلم إنتاج القيم ولا حتى حمايتها؛ ذلك لأن القيم ـ بالتعريف الذى يقول به العلم ـ «لاعقلانية» بالكلية. وهكذا، فسوف تنهار مجتمعاتنا خلال ليلة واحدة، إذا لم يكن ٩٩,٩٪ من الناس يهتدون بالقيم التقليدية فى معظم حياتهم. قامت الحضارة الغربية على القيم الأساسية النابعة من الفلسفة اليونانية والرومانية، خاصة الفلسفة الرواقية، والمسيحية، والاعتبارات الإنسانية المبطنة للقواعد المعاصرة لحقوق الإنسان.

وفى الحقيقة، فإن الحضارة الغربية، والوفرة ومستويات الحياة بها، قد قامت مباشرة على

أخلاقيات العمل (الاجتهاد، والاقتصاد فى الإنفاق، الأمانة، الثقة، الدقة، الصبر، الكمال، الاستهلاك المؤجل، التطوير الدائم، القوة)، والأخلاقيات الاجتماعية (التضامن، التعاطف، الطاعة، الاستعداد للتضحية، المشاركة، التواضع، توقير الأحكام الدينية)، والأخلاقيات الشخصية (الترابط العائلى، الشرف، العفة، الإخلاص الزوجى، رعاية الوالدين، احترام ورعاية المسنين).

طبقًا لتحليل عالم الاجتماع من هارفارد دانييل بيل فى كتابه «التناقضات الثقافية للرأسمالية» (١٩٧٦)، فإن المشكلة مع المجتمع الغربى تكمن فى أن نجاحه الاقتصادى يدفع إلى تدمير القيم الجوهرية التى قام عليها. وتظهر تنبؤاته جلية هذه الأيام؛ حيث لا تتعرض معظم القيم الرئيسية السابق ذكرها، فقط لعدم الاحترام، ولكن للسخرية أيضًا. لقد اختلفت فكرة «الشرف» على الخصوص من التعامل، إلا فيما بين عائلات المافيا!.

دائمًا ما يتعامل الشباب المعاصر فى الغرب مع كل قواعد التعامل النزيه على أنها محرمات (تابوهات)، يجب تدميرها لكى يتسنى تحرير وتخليص الإنسان من حكم السلطة. ولقد جنى سلمان رشدى عام ١٩٨٩ الكثير من المكاسب من هذا الاتجاه بكتابه «آيات شيطانية»، عندما شارك بملء إرادته فى التجديف (الكفر) على الله، مع معرفته التامة أن الإنسان المعاصر لم تعد تشغله مثل هذه المصطلحات.

وفى الوقت نفسه، فإن جيل الشباب، سواء أقروا بذلك أو لا، قد أخرجوا للحياة محرمًا (تابو) جديدًا من صنعهم: الموت. كل الحضارات السابقة، على العكس من حضارتنا، قد ساعدت على تقبل الموت. لكننا فى الغرب الآن، قد أنجبنا جيلًا غير قادر على تقبل الموت، ويسمى فيما يشبه الصدمة «غير مؤهل للموت» عند (سليم فروند).

وكم هو معبر، إعلان الوفاة فى جريدة فرانكفورتر الجماينه فى ١٢ من مارس ١٩٩٨، والذى يقول: باى باى يا أولريخ!

النتيجة المترتبة على تجاهلهم للقيم التقليدية، أن أصبحت المجتمعات الغربية طفيلية (ريمى براج) من خلال «الغضب المتجدد» (پيتر سلوتيرجيك)، وأيضًا «البحث المنفلت عن الجديد» (دانييل بيل). لم يكتفوا بالتعدى على «الحق فى الاستمرار» (أورتيجا جاسبت)، بل قد بددوا قواعدهم الأساسية، بدون أن يجددوها.

يسمى بعض المتفائلين هذا الوضع «ثورة القيم»، مشيرين ببساطة إلى أن القيم التى عفى

عليها الزمن، قد حلت محلها قيم جديدة. مع ذلك، فقد فشلت فى العثور على قيمة حقيقية واحدة جديدة، اللهم إلا إذا اعتبرنا القبول العام للزوجين من نفس الجنس، والمخدرات «الخفيفة»، والعلاقات الجنسية المختلطة، والحساسية الفائقة، التى تشمل حصد التوتر بحسبانه من «القيم».

إننا على الأصح، نواجه بجيل جديد، يرغب بدون أى تحكم «أن يبدد طريقه للسعادة»، (ويليام أوفالس)، وتقوم وسائل الإعلام المتخصصة فى إثارة غرائز الجماهير بمساعدته على ذلك، بنفس أسلوب المصارعين الرومانيين القديم (پيتر سلوتيرجيك متحدثًا فى «فاشية التسلية»).

داخل هذا المسار، أصبح الناس غير معتادين على حقائق الحياة ـ فالحوادث، والمصائب الشخصية الأخرى، والمرض، والكهولة، والموت ـ إلى حد أنهم أصبحوا فى غاية الحساسية، وغير قابلين للتواؤم بدون مساعدة «مستشارو الأحزان».

يتفق ما سبق مع الملاحظة المثيرة التى أبداها س. ج. جونج «أرنى إنسانًا صحيحًا عقليًّا وسوف أقوم بعلاجه!». عندما يبدو حاليًّا أن كل شخص فى الولايات المتحدة تقريبًا له طبيبه النفسى، ويسفر الفحص الطبى عن المزيد والمزيد من الاضطرابات العاطفية حتى بالنسبة للأطفال الصغار، مما يدعم الاتهام للمجتمع الغربى بأنه يولِّد قلة الحيلة.

انتحر فى عام ٢٠٠١ ثمانية من الجنود الألمان المعسكرين فى البوسنة، وكوسوفا، ومقدونيا؛ حيث وجدوا أن الخدمة هناك لمدة ستة أشهر «شاقة للغاية» بعيدًا عن صديقاتهم. خلال الحرب العالمية الثانية، كان أجداد هؤلاء بعيدين عن أوطانهم للعديد من الأعوام، ولم يكونوا مجرد دوريات لحفظ السلام، كانوا يخوضون حربًا دموية ثقيلة!.

أدت ما تسمى بـ «ثورة القيم» إلى تحويل التدريس فى المدارس إلى عملية تعذيب. الأطفال غالبًا جاهلون بالقيم، يظهرون أنانية وقحة، وشراسة وعدوانية، وفقدانًا للحوافز الدافعة، والتشبع الإعلامى مع حيز ضيق من الانتباه. لن يستطع معظم السياسيين الذين يتدارسون داخل مكاتبهم وسائل إصلاح التعليم، البقاء لمدة يوم واحد كمدرسين لهؤلاء الأطفال.

تحظى أزمة القيم الغربية حاليًّا بالقلق داخل بقية العالم؛ لأن الثقافة فى وقتنا الحالى ليست ثقافة مكان بعينه، بل هى ثقافة عالم وعصر بعينه.

غالبًا ما سينتشر اتجاه ما بعد الحداثة الذى هو «كل شىء يجوز»، فى كل مكان بعد ذلك،

طبقًا لعبارة كونستانتين فون بارلوين «نحن نحوز الآن ثقافات متعددة الألوان، وكلها متفاعلة بعمق مع بعضها البعض».

٣ ـ السلام الروائى (الخيالى)

لم يقدم شيئًا العون لإحلال ما بعد الحداثة محل الحداثة، مثلما قدمت لاعقلانية الحروب المتواصلة داخل ما يفترض أنه العالم المستنير. وكانت الدموية المفرطة للثورة الفرنسية، قد صدمت الأعداد الهائلة من الناس الذين تنبئوا بسلام دائم فى ظل عصر العقل، لكنه قدم ما هو أسوأ.... الاستعمار.

كانت الحرب الأهلية الأمريكية مذبحة ـ بما يتجاوز مسألة العبودية(*) ـ ثم جعلت كل من الحرب العالمية الأولى، والحرب الأهلية الإسبانية، والترويع الستالينى، والهولوكوست النازى، والحرب العالمية الثانية وحرب ڤييتنام(**)، بما فيها من استخدام الأسلحة الكيماوية والنووية ضد المدنيين، من القرن العشرين أكثر الفترات التى عاشتها البشرية دموية.

بالفعل، تنبأ تولستوى (مات ١٩١٠) فى رواية «الحرب والسلام» أن الحياة مستحيلة فى اللحظة التى يظن فيها الإنسان أنه يستطيع أن يقودها ويمارسها وفقًا لتوجيهات العقل الخالص.

عند الرجوع لمثل هذه الخلفية، كيف يتأتى لأى عاقل أن يدعى أن أوروبا وأمريكا هما رواد حقوق الإنسان، وأكثر الحضارات تطورًا، وموضع العقل؟ كيف لا يرى أى عاقل أن هذه الجرائم لانهائية الوحشية كلها ارتكبت خارج العالم الإسلامى؟ كيف يمكن لعاقل الاستمرار فى الاعتقاد أن الأخلاق بدون الدين تستطيع الوجود؟.

وهكذا، فبدلًا من أن يقوم الغرب «بإلقاء نظرة إلى الخلف على ما جرى» (لورد نورث بورن) باعتباره جزءًا من الماضى، «فدائمًا ما يعيد اكتشاف براءته المزعومة» (ريتشارد فولك). الولايات المتحدة بخاصة محصنة ضد النقد الذاتى ومستمرة فى التعامل كما لو كانت تملك

(*) استمرت ٦ سنوات، مات فيها أكثر من ستمائة ألف أمريكى، أى ما يقارب رجل من كل عشرة رجال فى سن القتال، وقد بدأ الحرب الولايات الجنوبية، والزعم بأنها كانت لتحرير العبيد مثل الزعم بأن الغزو الأمريكى للعراق هدفه نشر الديمقراطية فيه وفى الشرق الأوسط.

(**) مات فى الحرب العالمية الأولى والثانية ما يقارب مائة مليون قتيل، وأضعاف العدد مصابون، وتم تدمير آلاف المنشآت المدنية، وهما فى الحقيقة حربان أوروبيتان مسيحيتان، جرجرت فيهما أوروبا «فى الأولى» وأوروبا وأمريكا «فى الثانية» بقية العالم للحرب.

سجلًا ناصعًا لحقوق الإنسان، ذلك على الرغم من استغلال العبيد، والفصل العنصرى، وإبادة الهنود الحمر، والاستعمار! وكل هذه الجرائم ارتكبتها أيضًا الدول الغربية. وهكذا، يستخدم الغرب حقوق الإنسان «كأداة ضغط للسياسة الخارجية، بدلًا من وسيلة لإصلاح التخلف فى المجال المدنى» (ريتشارد فولك)، ويستمر الغرب فى سياسته الخارجية المبررة أخلاقيًّا لتحقيق مصالحه، والمستعدة على الدوام لاستخدام القوة إذا تعرضت مصالحه للخطر.

على الرغم من أن كل حكومة إسلامية، هى حكومة تعتبر بالكاد ديمقراطيًّا شرعية طبقًا للمعايير الغربية، فإن معظم هذه الحكومات يحصلون على درجة من الشرعية من الخارج، أى من الغرب (راشد الغنوشى).

لأن الإسلام يأبى الخضوع للحداثة بأمراضها الفتاكة، ولأهداء البشر بصفة عامة، يمكن للمرء القول مع (محمود رشوان) إن الولايات المتحدة والغرب، قد وضعا الإسلام على رأس «قائمة المطلوبين بشدة». ويندر فى الحقيقة الناس ذوو الفكر الثاقب، الذين فقدوا إلى الأبد ثقتهم فى بركات الحداثة.

لم يعد المجتمع الغربى ينعم بالسلام. وصل مستوى العنف فى المدارس الثانوية الأمريكية حدًّا مرعبًا. المراهقون المسلحون تسليحًا ثقيلًا، ويقومون بمذابح ضد زملائهم داخل المدارس، لا يمثلون إلا قمة جبل الثلج الغاطس. يتغذى معظم ذلك بالتأكيد، من كمية العنف غير المعقولة، التى تشاهد يومًا بعد يوم، فى التليفزيون. وأخيرًا، ماذا تدور حوله معظم ألعاب الكمبيوتر؟ القتال، وإطلاق النار، والقتل(*). وبالطبع، فإن الإعلام ليس هو فقط السلاح الرئيسى فى مشروع الحداثة، لكنه أيضًا هو المتهم الرئيسى.

٤ ـ حافز الربح

حيث إن العثور على السعادة أصبح فى المشروع الغربى يقبع بشكل رئيسى فى استهلاك السلع المادية، تلتصق كل مظاهر الحياة الغربية بالاقتصاد، وانتقلت أيضًا قوانين الاقتصاد إلى المجالات الأخرى بالمثل، بما يشمل الأسرة.

الرأسمالية، كما بشر بها آدم سميث عام ١٧٧٦ فى كتابه «تساؤل عن طبيعة وأسباب ثروة

(*) هل يمكن القول بأن حروب الولايات المتحدة التى لا تنتهى منذ قيامها إلى الآن تستلزم نشر ثقافة العنف وإسالة الدماء حتى يتقبل الشعب الأمريكى تلك الحروب، وحتى يجد الجيش الأمريكى المقاتلين في صفوفه؟

الأمم»، وبفضل مجهودات جيرمى بنثام، وچون ستيوارت ميل قد أصبحت نفعية بشكل قاطع فى القرن التاسع عشر، وفقًا لتعريفها «الخير هو النافع والفعال فى الحصول على أقصى درجات السعادة، عن طريق إنتاج أقصى كمية من البضائع، لأكبر عدد من الناس». السعادة للعالم لم تكن بالطبع تعنى الاستعباد الدائم للإنسان. أصبح الإشباع المادى للإنسان فى الجنة الأرضية هو نهاية المطاف. فى هذا السياق، تتحول الرفاهية السابقة إلى ضروريات، ويجد الإنسان نفسه فى حلقة متفاقمة لانهائية من عدم الرضا. «عصر الكم» (رينيه چينو) قد استقر. أصبح الكم والإدراك الحسى للأشياء، هما فقط ما له الاعتبار.

وفى الواقع، النفعية هى التى قادت إلى الغلو الذى أنجب الماركسية. وكما رأينا، فقد تنبأ ماركس أن الرأسمالية، بدون التصحيح، سوف تدمر نفسها، ويبدو من قيام الشركات العملاقة، وفترات الكساد الطويلة أنه على حق.

بعد ذلك، طور لورد ماينارد كينز تدخل الدولة فى السوق، وأدخلت الأحزاب الديمقراطية التشريعات، التى وفرت للرأسمالية الاستقرار، ومزيدًا من الإنسانية، عما ظن ماركس إمكان حدوثه.

وحتى البلدان غير الشيوعية مثل فرنسا والسويد، فقد أخضعت اقتصادياتها لتخطيط شامل من الدولة. ورغم ظهور تداخل دورات التضخم والكساد، رفعت نقابات العمال من مستوى الأجور حتى عندما ارتفعت معدلات البطالة، وأعلنت بذلك هاتان الظاهرتان موت الكينزية.

يتزايد هذه الأيام النقد للرأسمالية. هل بوسعها المحافظة على النمو إلى ما لا نهاية؟ المساواة التامة ستكون على حساب الحرية، هذا معلوم الآن، ما هو حد اللامساواة الذى يمكن التجاوز عنه؟ ألا يؤدى النمو المستمر إلى تدمير البيئة، وتبديد الموارد الطبيعية غير القابلة للإحلال؟ ألا يؤدى ارتفاع نسبة ثانى أكسيد الكربون إلى ارتفاع حرارة الغلاف الجوى إلى الدرجة التى تؤدى إلى هجرة الحياة من الأرض؟

قد تكون الرأسمالية هى الأفضل بين النظم التى حاولت حتى الآن إمداد الجنس البشرى بالبضائع الكافية ذات الجودة، ووفرت للأفراد الاختيار الحر والفرص. ولكن حتى هؤلاء الذين يرونها بهذه الطريقة، بدءوا فى التساؤل: هل تكون الرأسمالية مجرد مصادفة، فى حصاد التاريخ الطويل؟

يتزايد النقد للرأسمالية الآن كنظام صالح بخاصة على ضوء التفاوتات فى الدخل الآن. ٢٠٪ أصول أغنى ثلاثة رجال فى العالم، وكلهم بليونيرات بالدولار، تتعدى الناتج القومى العام لكل الدول الأقل نموًّا التى يبلغ تعدادها ٦٠٠ مليون مواطن. بينما يحصل ١,٣ بليون نسمة على سطح هذا الكوكب على أقل من دولار واحد فى اليوم للإنفاق، يقدر دخل الجريمة المنظمة بمقدار ١,٥ تريليون دولار أمريكى (أكرر: تريليون) كل عام.

المرض العضال ينتشر داخل قلب العولمة. يمكن للمرء أن يلاحظ التباعد بين الرأسمالية على الأسلوب الأمريكى، ونظيرتها بالأسلوب الأوروبى، مما يؤشر بحدوث تناقض. الحضارة الأمريكية تتبنى المواجهة، كما فى المحاكم وأيضًا فى منافسة السوق، بينما الأوروبية ذات توافق جماعى، وتغذى مزيدًا من التوقعات المتجاوزة للمادة من الحياة.

ومع ذلك، ففى القارتين، فإن المستهلكين وحاملى الأسهم يلحون باستمرار على الأحدث والأرخص من المنتجات، وبذلك يولدون ضغطًا هائلًا نحو التقليل من تكلفة العمالة، ومن حماية البيئة (مما يولد المزيد من العولمة).

الإنسان الذى يسعى باستمرار لتملك المزيد (حامل الأسهم)، والذى يريد أن يدفع أقل (المستهلك)، سيؤدى فى النهاية إلى تعرضه شخصيًّا للبطالة. وعندما يطبق الاقتصاد «المنطق» الخاص به، فقد يؤدى ذلك بالإنسان «إلى الاحتراق بواسطة حضارته الشخصية» (أرنولد جيهن). بالمثل مثلما حرر الإنسان نفسه من سلطة الله سعيًا وراء المتعة، فإن الاقتصاد والحضارة، قد يحرران أنفسهما من سلطة الإنسان (روديجر سافرانسكى).

أشار (تشيستيرتون) مرة، إلى «أن عاقبة عدم الإيمان بالله، ليست هى أن المرء لا يؤمن بشىء». يقينًا، سيصبح المرء عرضة للإيمان بأى شىء. أحد هذه الآلهة الدنيئة هو الثروة المالية. لقد كرست المجتمعات البورجوازية لنمط السلوك القائم على الحسد مع الوضع فى الاعتبار أن «الإنسان لا يرغب فى أن يكون غنيًّا، بل يرغب فى أن يكون أغنى من كل الآخرين» (چون ستيوارت ميل).

مع عولمة الاقتصاد، فإن حجم الأموال الدائرة حول العالم، قد بلغت أكثر من عشرات المرات قدر الأموال الناتجة عن بضائع فعلِّية وإنتاج حقيقى.

ويستطرد (ريتشارد فولك) من جامعة پرينستون موضحًا، لم يعد الغرب حيزًا جغرافيًّا، بل ظاهرة كونية. تدار العولمة بمؤسسات لا تحصى، بالغة الضخامة ومتعددة الجنسيات، أى «لاعبين عالميين» يضيقون الخيارات السياسية للمجتمعات الغربية إلى الحد الذى تصبح

معه السياسة «تدار برأس المال بدلًا من أن يديرها الجمهور». قد يؤدى ذلك إلى انهيار فى «الديمقراطية الاجتماعية» بصورتها المعروفة فى ألمانيا، وبريطانيا، والدول الإسكندنافية.

٥ـ الإعلام كضفيرة من المعلوماتية والتسلية (المعلوتسلية)

الإنسان المعاصر خطر محتمل إلا إذا انشغل. هناك صناعات متكاملة تعمل على شغل ساعات فراغه، وذلك لحرمانه من أية فرصة للاسترخاء، أو التأمل، أو التفكير بعمق، أو الصلاة فى هدوء. وفى الواقع، يجب على الدوام إثارة غرائز الإنسان المعاصر. وحتى عطلاته، ينبغى تحويلها إلى مغامرات، يشرف عليها محترفون فى التسلية. ولا عجب، فلكى يتم ذلك، يجب أن يخلط الإعلام المعلومات بالتسلية، من أجل اصطياد الزبائن على الدوام، وبالتالى يقعون فى شراك «المعلوتسلية».

لقد قيل الكثير عن هذه الظاهرة، والظواهر غير الكريمة الأخرى للإعلام. والواقع، فمستواه لا يترك أى إنسان على طبيعته؛ لأن المرء ينحو ناحية أن يصبح «هو ما يراه»، فيما يسمى بذكاء «التحليل النفسى المعكوس» (ويليام أوفالس). أخبرنى عن قنواتك التليفزيونية، وسوف أخبرك من أنت.

تكمن الخطورة فى الحقيقة فى أن وجهات النظر الأيديولوچية المعتبرة من قِبَل الغالبية من الصحفيين فى الغرب، لا تمثل بالكلية المعتقدات السائدة بين الجمهور. وفى المتوسط، فالغالبية العظمى من الصحفيين، فيما يزيد عن النسبة بين المواطنين، هم ملحدون، ويميلون لليسار، وصهاينة.

هناك ـ بالطبع أيضًا ـ برامج تليفزيونية ذات مستوى رفيع، وأيضًا مجلات وجرائد. ومع ذلك، فكما تطرد العملة الرديئة العملة الجيدة من السوق، كذلك فإن المنتجات الإعلامية الهابطة تستحوذ على النصيب الأكبر من المشاهدين. لذلك، فحتى القنوات الإسلامية الأكثر احترافية لن تكون أبدًا ذات جدوى اقتصادية؛ حيث إنها تتجنب الجنس، والعرى، والجريمة، والإثارة. الأخبار الطيبة فى عرف الإعلام ليست بأخبار، بينما الأخبار المثيرة هى الأخبار المفيدة.

إذا كان هناك احتياج لدليل إضافى على اللاأخلاقية البنيوية لهذا الوسط، فهذا ما توفره برامج «تليفزيون الحقيقة ـ Reality TV». بهذه البرامج الشديدة السفاهة مثل «العالم الحقيقى ـ The Real World»، «الأخ الكبير ـ Big Brother»، «تليفزيون التجسس ـ Spy TV»، «جزيرة الإغراء ـ Temptation Island»... أطلق التليفزيون الأمريكى ولعًا مهووسًا أمسك

بتلابيب المشاهدين فى كل العالم. بعض هذه البرامج تشبه الدعارة (ولكن على الملأ)، والدخول فى علاقات مختلطة غير قانونية. أصبح معدو البرامج التليفزيونية مثل القوادين!.

يتساوى فى الخطورة مع التغذية الإعلامية للإفقار الروحى للجماهير، الاتجاه المتزايد للمشاهدين نحوها.

تجاوزت وسائل الإعلام المعاصر كل الحواجز الموضوعة لحماية الدول ذات الأيديولوچية والمجتمعات المنغلقة، مثل الصين، وكوريا الشمالية، والمملكة العربية السعودية، من تأثيرات الأنباء وأيضًا الثقافات. ينبغى على الدول الإسلامية أيضًا تغيير إستراتيچياتها لحماية تراثها الإسلامى. الفكرة تكمن فى تحصين الناس، من خلال التعليم المناسب، ضد تأثيرات الأفكار الضارة، وليس من خلال محاولة عزلهم المادى عن التعرض لها.

٦ ـ التعليم كعقيدة فكرية (أيديولوچيا)

على الرغم من أن التعليم عادة ما يكون مسئولية محلية، أو على أقصى تقدير، يدار على مستوى الدولة، فإن المعالم الرئيسية للتعليم هى واحدة فى الغرب بكامله. تلعب العلمانية هنا دورًا حاسمًا: تدرس كل الموضوعات كما لو أن الله غير موجود، على الرغم من أنه فى دروس الفلسفة قد يتم الإقرار بأنه لا يمكن الرهان على عدم وجوده، فالواقع أن التعليم ملحد ومادى، بغض النظر عما وصلت إليه الفيزياء الحديثة من أفلاطونية.

الحصص الاختيارية فى الدين، قد تكون ساعة أسبوعيًّا، لا تفعل إلا اليسير ضد هذا التيار الذى يزرع الإلحاد، وعلى المستوى العاطفى يبدو من الصعوبة بمكان أن تجتذب التلاميذ للإيمان. ومهما كان عدد الحصص، فما فشلت العائلة فى الوصول إليه لنشر الدين، لا يمكن للمدرسة أن تفعله.

سيكون الطالب الغربى، الذى يتم المرحلة الثانوية على اقتناع بالتالى:

- إن الله، على أقصى تقدير، هو افتراض، ولكنه غير ذى صلة بحياته على أى مستوى.
- الكون أبدى.
- ظهرت الحياة تلقائيًّا.
- تطور الإنسان بالانتقاء الداروينى صعودًا من القرد.

• سوف يقدر الإنسان عاجلًا أو آجلًا، على تفهم الكون، والمخ الإنسانى، ويتمكن من خلق الحياة.

• لا معنى وراء الوجود.

• تمثل الأديان مرحلة بدائية وسحرية من التطور الاجتماعى. وهى عرضة للاختفاء، مثل كل الأحكام السابقة غير العلمية.

يستطيع المرء بسهولة أن يرى أن تراكم كل ذلك أدى إلى نظرة كونية متسقة، رؤية أيديولوچية للعالم تدين بالكثير لأفكار القرن التاسع عشر، أكثر منها لاتجاهات القرن العشرين. وفيما يشبه المعجزة، وفى مثل ذلك المناخ العقلى، فإن أفرادًا من الناس، يجدون بشكل متكرر، طريقهم إلى الإسلام.

٧ ـ الثورة الجنسية

مرت بالإنسان خلال القرنين الأخيرين الكثير من الثورات، أضخمها أثرًا وأطولها بقاء هى على الأرجح الثورة الجنسية التى قامت فى الغرب بعد الحرب العالمية الثانية. بدا الجنس لفترة من الوقت، وكأنه أصبح البديل الأول للدين، هاديًا بأنبيائه الذى يبشرون بالحرية الجنسية، بمعنى التحرر من الكوابح مفردة كانت أو كلية، والتى ساعدت تقليديًّا على الحد من غريزة الجنس الفائقة القوة.

الأشهر من بين أنبياء الجنس كان ويلهم ريتش (مات ١٩٥٧)، هربرت ماركيور «أخصائى الجنس»، ألفريد س كينزى (مات ١٩٥٦). أصبحت كتب مثل «تقرير عن السلوك الجنسى للإنسان الذكر» لكينزي(١٩٤٨)، والتقرير المماثل عن السلوك الجنسى للنساء (١٩٥٣) فى أمريكا معيارية؛ لأن كل شخص يريد أن يكون «طبيعيًّا». ما هو «الطبيعى»؟ قام كينزى بتحديده على أساس ما يقارب ٢٠,٠٠٠ عينة. الكتب التى أصدرها ماسترز وچونسون عن «رد الفعل الجنسى» ظهرت فى نفس الوقت، وجاءت بنفس الأثر.

أصبحت الآن العادة السرية، والجنس ما قبل الزواج، تبادل الزوجات، الجنس فى الشرج، والجنس المثلى، ومشاهد العرى، والدعارة، أصبحت كلها مقبولة، وتتكرر كموضوعات رئيسية خلال تبادل الحديث، كما تجتذب الإعلام. الجنس مع الأطفال هو الوحيد الذى استمر من المحرمات (تابو)، التى لم تحل دون التجارة الضخمة لعرى الأطفال، وأيضًا من

خلال الإنترنت. إن ظهور العرى على أغلفة المجلات أصبح متواصل التكرار، وصار من شبه المستحيل بيع أى شىء بدون رموز للجنس فى الإعلان عنه.

بلغ البغاء الذي أخذ فى التفاقم من نصف قرن مضى مستويات جديدة من الإنجاز. لقد سمح فى بعض البلاد لمحترفى البغاء من النساء بتكوين نقابات على أنهن «عاملات جنس»، وقد حصلوا على الاعتراف الرسمى على أنهن من المهن العادية دافعة ضرائب الدخل. وفى ألمانيا منذ عام ٢٠٠١، يحصل الأزواج من الشواذ على شرعية التسجيل المدنى، وبذلك يتمتعون بمعظم امتيازات المتزوجين. يدفع مكتب الخارجية الألمانية حاليًّا بشكل روتينى مصاريف انتقال وإسكان هذا النوع من «رفقاء الحياة»، بالضبط كما لو أنها لزوجات الديبلوماسيين المعتمدين. وفى الحقيقة، حاز تعبير «رفيق هذه الفترة من حياتى» القبول.

الثورة الجنسية، التى عُبدت مثل العجل الذهبى، لم تقدم بالطبع الحل لأى مشكلة تتعلق بالوجود، والأسوأ، قامت على افتراض مساعدة النساء على التحرر، وأن يصبح لهن السيادة على رغباتهن الجنسية، ولكن أصبح من الجلى أن النساء هن الضحايا الرئيسيات للثورة الجنسية!. فكما سبق الحال، استمرت مربوطات إلى أطفالهن، ولكن «كأمهات بدون أزواج» عندما يهرب الأب أو الصديق. ومثل ما سبق، استُغل عريهن للأغراض التجارية. وكالسابق، كان الرجل مرة أخرى هو الأوفر ربحًا من الجنس غير الشرعى، وافتقاد الروابط العائلية، بينما الخاسر الأكبر فى العلاقة هو الذى يتحمل الطفل، أى المرأة.

ورغم ذلك، فإن التجارة فى النساء كرقيق لم تختف. يصل إلى أوروبا ما يقارب نصف مليون امرأة سنويًّا، قادمات من أوروبا الشرقية وأفريقيا وآسيا، بما يقارب قيمته ٧ بلايين دولار أمريكى فى العام.

على الرغم من ذلك، ينبغى ألا نغفل النظر عن المبدأ القانونى بالمساواة بين الجنسين، الذى صار فى مرتبة المبدأ الجوهرى فى حقوق الإنسان، قد أتاح لمعظم النساء التقدم المهنى. وواقعيًّا فإن كل المهن، بما فى ذلك العسكرية وفى الشرطة، وقيادة التاكسى والسياسة، أصبحت الآن متاحة أمامهن، بما يساعدهن على الوصول إلى تحقيق الذات، وإلى درجة من الاستقلال المالى لم تعرف من قبل.

لكن هناك أيضًا بعض من التأثيرات الجانبية التى لا يمكن غض النظر عنها. الاستقلال المالى جعل الطريق سهلًا أمام المرأة لطلب الطلاق. ورغم أن المنافسة ضد الرجال ـ بنفس شروطهم ـ

قد قدمت نوعًا من «سيدات الأعمال» الناجحات، اللاتى قد حصلن على كل شيء متاح أثناء خوضهن معركة مساواة الجنسين، لكنهن خسرن أنوثتهن. العقيدة الجامدة الآن هى أن الرجال والنساء، على الرغم من الاختلاف البيولوچى، هم متطابقون فى كل الوجوه الأخرى، وأيضًا من الناحية النفسية، والعاطفية، كذلك من ناحية الموهبة. الذى يجرؤ على مناقشة هذه العقيدة الجامدة، يتهم بالتفرقة الجنسية، وذلك هو أسوأ اتهام قد يلصق بأحد. أصبح الرجال والنساء يحاولون أن يبدوا متشابهين، ويرتدوا نفس الثياب، وأيضًا لهم نفس تسريحة الشعر. النتيجة المتوقعة لذلك، هو انهيار الانجذاب المعتاد تواجده بين القطبين المختلفين. لا اختلاف، إذًا لا إعجاب، ومن الناحية الأخرى فلماذا لا يمارس الرجال الجنس مع بعضهم البعض، والنساء مع بعضهن البعض؟.

هذا الموقف بالغ السوء على ما هو عليه، لكنه يصبح أكثر سوءًا من خلال عدم التسامح الذى تبديه النساء العلمانيات، مصحوبات بالحماسة التبشيرية، مع «العقلية الاستعمارية الجديدة» (رشا الدسوقى)، فإنهن يسعين إلى إجبار أخواتهن حول العالم، خاصة النساء المسلمات، على تبنى أسلوب حياتهن، ونظريتهن فى الهوية الجنسية، بغض النظر عن الثقافة أو الدين.

تلقت الثورة الجنسية عونًا عظيمًا من توافر «الفرص» منذ الستينيات، عن طريق إزاحة الخوف من الحمل غير المرغوب، فقد حرم ذلك النساء من عذر كبير لمقاومة ممارسة الجنس غير الشرعى، كما أنه سمح أيضًا لعدد كبير من النساء لأول مرة على الإطلاق بالاستمتاع بقدراتهن الجنسية.

للحسرة، فقد قدمت هذه المرحلة حزمة جديدة من المشاكل: انتشار الأمراض المنقولة خلال الجنس، خاصة الإيدز. لا يعنى الجنس المنفلت الآن الحمل فقط، ولكن الموت أيضًا. حاليًّا هناك ٣٣ مليون شخص يحملون ڤيروس مرض الإيدز (HIV). ما أتعس ناتج ما قد بدأ على أنه «التحرر».

٨ ـ انحطاط الأسرة

الضحية المباشرة للثورة الجنسية، والتى هى الأكثر استحقاقًا للأسى هى الأسرة. انهيار الأسرة الناتج عن الثورة الجنسية هو نذير شؤم فعلى على قرب انهيار الحضارة الغربية.

الذى حدث للأسرة فى الغرب لا يشكل مفاجأة لمن يتابع التوترات التى تعمل الأسرة فى ظلها. فى السابق، كانت الأسرة تكبح زمام الجنس بمنعه خارجها وممارسته داخلها. لقد اختفى كل ذلك، بالإضافة إلى أن التليفزيون يفتن كل ليلة المشاهدين بالرجال الآخرين والنساء

الآخريات، ويحض الزوجات داخل بيوتهن على الدخول فى المنافسة مع جماليات لعارضات مثل السراب، وهى منافسة لا يمكنهن بكل بساطة، الفوز فيها. عندما يصبح الجنس بضاعة تعرض فى السوق، فسوف تتحلل الأسرة، وذلك ما يحدث بمعدلات مخيفة. أرقام الطلاق تتصاعد فى كل مكان. والأسوأ من ذلك، المزيد والمزيد من الشباب يقررون عدم الزواج مطلقًا من البداية.

لا أحد يعانى بشدة بسبب انحلال الأسرة، أكثر من الأطفال. وهم يعانون إما من الإهمال الناتج عن ذلك، أو من المعركة الناشبة على حضانتهم، أو من استغلالهم مثل الرهن، فيتمزقون بين الولاء للأب والولاء للأم. النتيجة هى تصور معوج عن الزواج، وفى الأغلب لن يدوم زواجهم هم أيضًا.

الأطفال الذين تم تجاهلهم فى عائلات مفككة، يبحثون عن أصدقاء فى مكان آخر ـ فى عصابات، فى طوائف دينية، كما لا ينبغى أن نتعجب عندما يصبحون فريسة سهلة لإدمان المخدرات بداية من شم الكلة وانتهاءً بالهيروين.

انحراف الأحداث، وبخاصة الأولاد واتجاههم للعنف، والمزيد من الغضب، والعدوانية التى تجد المتنفس لها بين الناس، تولدت فى البيت، عندما لم يعد البيت، بيتًا على الدوام.

تذكر: بداية كل هذه الأمور كانت ثورة الجنس...

٩ ـ العدوان على الحياة

تحرر المرأة، الذى تم الحض عليه قبل وبموازاة ثورة الجنس فى الغرب، قاد إلى الادعاء بأن تلك هى الرغبة الحرة للمرأة بالموافقة أو الرفض على مسألة الحمل، كان الشعار هو «إن بطنى تخصنى»، أما عن حق الجنين فى الحياة، فيخفت تدريجيًّا الحديث عنه. أصبح الإجهاض قانونيًّا فى كل مكان تقريبًا، وعلى الأقل خلال الشهور الأولى للحمل.

وفى الوقت نفسه، ومع إمكانية تحديد جنس المولود فى مراحل مبكرة للغاية، فقد تزايد بشكل يثير الانتباه الإجهاض للتخلص من الجنين الأنثى، خاصة فى دول مثل الهند؛ حيث تعتبر البنات عبئًا اقتصاديًّا أكثر من الأولاد. أيضًا انتشر فى كل مكان اعتبار الأطفال نذير خطر على مستوى الحياة المرغوب. وهكذا، فقد قامت صحيفة «الولايات المتحدة اليوم» بحساب تكلفة تربية طفل من الطبقة العليا حتى بلوغه الثامنة عشرة سنة بما بلغت قيمته ٢٤١,٧٧٠ دولارًا أمريكيًّا. وهكذا، فإن الأطفال يتم استبعادهم فى سبيل اقتناء بدائل مثل بيت مترف فى أحد المنتجعات، أو قارب فخم مزود بوسائل الرفاهية.

أصبح أيضًا التشخيص قبل الولادة باحتمال وجود عيوب فى الجنين، مبررًا لقتل الجنين، حتى لو كان له خمسة شهور من عمر الحمل.

وحديثًا للغاية، فقد وسعت أبحاث خلايا الجذع من شقة الخلاف. من الناحية العملية، فإن خلايا الجذع الجنينى المنتجة من أجل الإخصاب الصناعى والأبحاث هى كلها مخلوقات إنسانية حية كامنة. تدمير الخلايا الزائدة عن الحاجة يعنى «إجهاضًا متكررًا».

ومع ذلك، فإن الرجل والمرأة العصريين ليسا فقط ملائكة للموت، فعندما يكون الأمر مناسبًا لهما، يتحولان إلى خالقين للحياة: الاستنساخ البشرى بدأ فى الظهور، هل تستطيع النساء القول «چيناتى تخصنى»، وتطلب استنساخ أزواجها المتوفين، أو أبنائها الذين فقدتهم مبكرًا؟ هل يسمح للمرأة بالحمل فى سن الستين؟ هل يسمح للرجل بالتصرف كخالق بالإنابة للحياة الإنسانية خارج عملية الإبداع الطبيعى الذى لا يجارى، صنيع الحب؟

بعض العلماء ـ بغض النظر عن قانونية الفعل ـ سيفعلون ما فى وسعهم دون الالتفات إلى أخلاقية الفعل. إن ذلك لا يعدو استعداء الله بغرور إنسانى مطلق. لقد استجاب الله لعناد إنسانى مشابه من قبل، وقد يفعل مرة أخرى.

١٠ ـ الإدمان البنيوى

أختم الحديث عن مبدأ اللذة المادى الغربى بفقرة صغيرة عن إدمان المخدرات؛ فذلك هو السمة الشخصية الغالبة على زماننا هذا. أظهرت تقديرات عام ١٩٩٥ أن تجارة المخدرات قد مثلت ما يقارب ٨٪ من التجارة العالمية.

عندما أذكر «مخدرات»، فأنا لا أشير فقط إلى المواد التقليدية مثل الحشيش، والكوكايين، والمورفين، والأفيون، وأيضًا الهيروين. كما لا يتوقف تعريف الإدمان عند المخدرات الماكرة، ذات الجماهيرية من خلال المشاهد الفنية. المناسبات من مثل مهرجان الحب السنوى البالغ الضخامة فى برلين، لا يمكن التفكير فيها ما لم تكن الأعداد التى لا نهاية لها من المشاركين بالرقص قد تعاطوا «الاكستازى». ولا يفى بالغرض أيضًا التركيز على التفاقم المتصاعد من إدمان الكحوليات، والسجائر، وتكلفتهما الفلكية على المجتمع (فاتورة أوروبا من الكحول عام ١٩٩٦ بلغت ١٠٥ بلايين دولار أمريكى).

ومما يبعث أيضًا نفس القدر من القلق، ملاحظة امتداد الإدمان إلى مجالات أخرى مثل التليفزيون، والإنترنت، ومزيج المعلوماتية والتسلية (المعلوتسلية)، والهوس بالاتصالات التى

لا تنتهى عبر التليفون المحمول: ظاهرة أنه ينبغى على الناس مداومة التأكيد لبعضهم البعض على أنهم موجودون هناك.

كل هذه الظاهرات السلوكية إما تؤدى إلى إضلال عقول البشر، أو ملء الفراغ الداخلى الذى يشعر به الكثير منهم. يترتب على الاثنين حرمان الإنسان المعاصر من أن يتبين أنه كائن مخلوق، فى فترة انتقالية، ويجب عليه الاستجابة لخالقه.

يطغى ضجيج الإدمان على صوت الضمير الذى قد يذكر الإنسان المعاصر بهدفه الحق، وهو معرفة الله، والاحتماء تحت عباءة الخضوع له. تعطى كل أنواع الإدمان معنى زائفًا للحياة، وتبدو على هيئة حلول، بينما هى فى الحقيقة تمثل المشكلة الجوهرية التى يتظاهرون بإيجاد حل لها. إنهم يحرمون الإنسان من التدبر والتأمل اللذين يحتاج إليهما من أجل إقامة الروابط السامية.

علاوة على ذلك، فإن معظم المخدرات السامة ذات أثر مدمر من الناحية الجسدية؛ حيث يصبح الإدمان بالنسبة لهم بمثابة انتحار على مراحل. وفى العادة، يزعم مدمنو التدخين أنهم لا يضرون أحدًا إلا أنفسهم. ولا يعد ذلك فقط محل تساؤل عن التدخين السلبى المفروض بالقوة على الآخرين بدون إرادتهم، ولكن أيضًا بسبب التكلفة الاجتماعية للأمراض والموت قبل الأوان: إن المدخنين، ومدمنى الشراب، وكل الذين يتعاطون المواد السامة، إنما يدمرون ملكية لا تتبع لهم: هى هبة الله من الأجساد العفية والعقول الصافية النقية.

وفى محاولة لتلخيص الفصل بكامله

إن مبدأ اللذة الغربى الحالى بما أدى إليه من التفكك الأسرى، ومشكلة الجريمة، والتحلل الجنسى، والإدمان، الذى وقع معظم المواطنين فى حبائله ـ هو نتيجة مباشرة لانفصال الفكر الغربى عن ماضيه الدينى. إذا مات الإله، فكل شىء مسموح.

نعم، ما زالت هناك بقية من رصيد أخلاقى موروث من الماضى المسيحى، لكنه يتوارى بالتدريج، وأصبحت معظم القيم المجتمعية الجديدة مجرد تبرير عقلى للأهواء الشخصية. هم لا يستطيعون تثبيت قاعدة أخلاقية تقوم عليها حضارة جديدة.

الخلاصة: إن الغرب فى ورطة عميقة.

* * *